

الســـــــادات يقرر العفو الشـــامل عن القضايا السياسية قبـــل ١٥ مايــو

اصدر الرئيس أنور السادات قرارا بالعفو عن باقى
العقوبات والجزاءات المحكوم بها ، والعقوبات قبل
والآثار الجنائية المترتبة على كل الأحكام الجنائية والمجالس
١٥ مايو ١٩٧١ من المحاكم العادية والافعال التى ارتكبت
العســكرية وذلك عن الجرائم ويشمل العفو الأحـكام
لسبب أو لغرض سياسى ، الاحكام الصادرة عن
... والغفاسة . كما يشمل
... « امض

وقد بينت المذكرة الايضاحية لقرار الرئيس أنه بعد مرور ٤ سنوات على ثورة التصحيح وبمناسبة حلول العيد الثالث والعشرين لثورة يوليو وبعد ان استقرت الأوضاع وحققت الثورة العديد من انجازاتها وسارت فى مسارها السليم فان الوقت قد حان لاعادة النظر فى شأن المواطنين الذين نسب اليهم ارتكاب جرائم أو أفعال أوقعتهم وقتها تحت طائلة القانون وحوسبوا على ما ارتكبوه .. كما أوضحت المذكرة أن قرار الرئيس السادات يهدف أساسا الى أن ييسر للمواطنين الذين يشملهم العفو المشاركة بصورة طبيعية فى بناء الوطن ..

الإهداء

الى شقيقى ...

محمود التونى ، وابو المجد التونى

عندما جمعتكما وسألتكما الراى فيما انا مقدم عليه من الدفاع عن المتهمين فى قضية حسين توفيق وقضايا الاخوان المسلمين ، وبصرتكما بعواقب هذا الاداء للواجب الذى كنت قد قطعت فى شوطه ستة وثلاثين عاما من عمرى ، وأوضحت لكما اننى سأكون هدفا للتنكيل ، بل الشطط فى الأذى والاسراف فى التنكيل عبرة لمن يجرؤ على مقام الظالمين .

وقلت لكما لابد وأن يلحق بكما جزء م[illegible]سالنى أو تشاركوننى فى كل ما ينالنى [illegible]سيمسكم نصب وأصب . فاشيرا على ، ولا [illegible]ملاننى فى القول ، فان العواقب خطيرة .

وان انس ما انس صوتكما معا وانتما تقولان لى [illegible] « امض

لقد ارتكب اخطر ما يرتكبه قاض وكل اليه الفصل ما بين العدل والظلم ، فظلم مخالفا قوله تعالى « ان الله يأمركم ان تؤدوا الأمانات الى اهلها ، واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل » .

ولقد كتبت كتابا عنه كمحام عانى من قسوته على المتهمين فى اثناء المحاكمات مما تهون ازاءه القسوة فى الاحكام ولو كانت بالاعدام .

ولقد تعمدت أن أبتعد عن حضور جلسات محاكمتك ، فاننى لم أطق ان ارى رجلا خدم بلاده وقومه زمانا طويلا ، هو كل زمانه فى الحياة ، وهو يحاكم بتهمة أنا خير من يعرف براءته وبراءة عترة سعد زغلول الخالد من كل ما يشين ، أو يدين او يخدش الاعتبار .

ولقد اقتنعت بأن اجعل محاكمتك للدجوى هى تصدير لكتابى للناس ، وما احسب انك تنكل عن اداء هذا الواجب لأن القانون يعاقب القاضى الذى يتخلى عن اداء مهمته فى القضاء .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

محمد شوكت التونى

المحامى

قلت وأنا اسمع الحكم على « اننى مؤمن بان التاريخ سوف يحكم باننى مظلوم » .

اننى أعرف الدجوى منذ عام ١٩٥٦ عندما هاجمت الجيوش البريطانية والفرنسية والاسرائيلية مصر ، واحتلت سيناء ، وبور سعيد ، وانقضت الطائرات المعادية على البيوت والمصانع والمدن تهدم وتخرب وتقتل ، واستدعانى الرئيس جمال عبد الناصر الى مركز قيادته أثناء المعركة ، وكان فى مبنى مجلس الثورة فى الجزيرة ، وقال لى اننى ساكلفك بمهمة خطرة قد تموت فيها . قلت اننى مستعد أن أموت ولست خيرا من الوف الأبرياء الذين يذبحون فى بور سعيد ومدن القناة .

وطلب منى ان اركب وحدى اول طائرة مصرية مدنية تغادر مصر أثناء العدوان وان احمل معى صور العدوان ، وانشرها فى جميع انحاء العالم ، واقوم بدعاية لبلادى المعتدى عليها فى أوربا وامريكا .. وقمت بالمهمة الخطرة . ووصلت الى مدينة نيويورك وفوجئت بجميع تليفزيونات امريكا تعرض فيلما للواء فؤاد الدجوى حاكم غزة وهو يسلم للجيش الاسرائيلى . كان الفيلم مهينا للجيش المصرى ، ولمصر كلها ، وكان الحاكم المصرى يقف ذليلا أمام ضابط اسرائيلى يقدم له خضوعا ، ويثنى على الجيش الاسرائيلى وشجاعته وقوته ومروءته وانسانيته ، ويدلل على هذه المروءة بأن زوجته كانت مريضة ، وأن اليهود نقلوها الى مستشفى فى تل ابيب لاجراء عملية جراحية لها . وكان كل عربى سمع ورأى هذه الصورة المذلة المهينة للحاكم المصرى وهو يثنى على انسانية قاتليه ومحتلى أرضه ومهينى شرفه ، كان كل عربى ينتفض غيظا واحتقارا للقائد الصغير الكبير .

وكان العرب فى نيويورك يقولون : كيف يجوز ان يشكر هذا القائد المصرى جنود الاحتلال الاسرائيلى الذين قتلوا العرب فى غزة ، وسبوا نساءهم والذين قتلوا شبابنا فى سيناء ومثلوا بجثثهم .

والارهاب ويهين المتهمين ، ويقاطع الشهود ، ويهدد بالحبس والسجن حتى يسمع الرئيس ما يقول ، ويعتقد ان الدجوى رجل مخلص للنظام .

وكان يتصور ان هذه «المواقف» سوف ترشحه ليكون وزيرا . وكان دائما يتباها بذكر عدد الذين اعدمهم وعدد الذين حكم عليهم بالاشغال الشاقة المؤبدة .

وكان المشير عامر يقول ان الدجوى لا يصلح الا ان يكون جزارا .

ولعل هذا هو السبب الذى جعله لا يرتفع اكثر من مدير مصلحة الحدود او مدير مصلحة السواحل فلم يكن فى الجيش المصرى من يصلح ليراس محكمة الظلم الا هو .

وكان الدجوى فى اثناء المحاكمات يتصل يوميا بالأستاذ أحمد لطفى حسونة رئيس القسم القضائى بالأخبار ، وبعد ذلك نائب رئيس تحرير الأخبار ، وكان يطلب دائما نشر اخبار عن نشاطه وكان يمليها عليه املاء .. ويرجو لطفى حسونة نشرها فى اماكن بارزة حتى يطلع عليها الرئيس عبد الناصر .

وفى ١٩٥٧/٩/١٥ املى اللواء الدجوى على لطفى حسونة الخبر التالى :

« **امضى اللواء فؤاد الدجوى** رئيس المحكمة العسكرية العليا خمس ساعات أمس فى قراءة اوراق قضية المؤامرة . قدم ١٢ محاميا مذكراتهم أمس من بينها مذكرة الدكتور وحيد رافت عن عاطف نصار ، وتقع فى ٢٤ صفحة » .

وفى مرة أخرى اتصل الدجوى تليفونيا بلطفى حسونة فى الأخبار واملى عليه الخبر التالى :

« **ان هناك** سرا وراء تأجيل جلسة محاكمة المتهمين فى قضية المؤامرة من يوم الخميس الى يوم الأحد فقد كان المنتظر ان تؤجل

هذه الجلسة الى يوم السبت ، والسبب ان اللواء محمد فؤاد الدجوى رئيس المحكمة احس اثناء الجلسة بارتفاع مفاجىء فى درجة الحرارة ، وقال لزملائه اعضاء المحكمة أثناء الاستراحة انه يخشى ان يكون قد اصيب بالانفلونزا الآسيوية ، ورغم هذا تحامل اللواء الدجوى حتى انهى الجلسة واجلها يومين .. وعاد الى بيته لينام .. وعندما قام من نومه كانت درجة الحرارة ما زالت مرتفعة ، وبالرغم من ان رئيس المحكمة لا يخرج من بيته هذه الأيام فقد خرج فى هذا اليوم ليستشير طبيبا ورفض ان يستقبل الطبيب فى البيت ، لأنه متعود الا يستقبل احدا خلال المحاكمة ، وعاد رئيس المحكمة من عند الطبيب وقد احس براحة وانخفاض فى درجة الحرارة ، وكان زملاؤه اعضاء المحكمة يتصلون به خلال اليومين للاطمئنان على صحته » .

وعرض لطفى حسونة الخبر على ، فقلت انه خبر اجتماعى ولم اوافق على نشره فى الأخبار ، وطلبت نشره فى آخر ساعة .

وقرأ اللواء الدجوى الخبر فى آخر ساعة واتصل بى يعاتبنى ، ويقول انه كان يريد أن ينشر الخبر فى الأخبار ليقرأه الرئيس ويعرف انه « مواظب » على المحاكمة .

وعندما أكدت له ان الرئيس يقرأ مجلة آخر ساعة ايضا شكرنى .

وهكذا كان الدجوى لا تهمه العدالة ، ولا يهمه اليمين الذى اقسمه ، كل ما يهمه هو أن يرضى ولاة الأمور .

وكان يقول انا لست قاضيا .. انا حامى نظام ..

وفى نهاية التحقيق معى فى المخابرات قيل لى ان النية متجهة الى اختيار اللواء الدجوى ليحاكمنى .

وعرفت عندئذ ان التحقيق اسفر عن براءتى ، ولهذا السبب تقرر ان يحاكمنى الدجوى . وفعلا ثبت بعد ذلك ان النائب العام

محمد عبد السلام قرر انه اذا قدمت الى أى محكمة عادية فسوف تبرئنى المحكمة ولهذا اختاروا لى الدجوى ..

وقبل المحاكمة تلقيت رسالة من احدى تلميذاتى هربت الى فى سجن الاستئناف هذا نصها :

« **ان المستشار محمـد منجى الراكشى (هو محام كبير بالاسكندرية ومستشار شركات)** قابل الفريق أول فؤاد الدجوى فى منزله بشارع مظهر بالزمالك ، وتحادثا فى الشئون العامة وبدا الفريق الدجوى يتكلم عن القضايا السياسية التى كلف بنظرها وقال ان مصطفى امين طلب سماع شهادة الرئيس جمال عبد الناصر بانه هو الذى كلفه بالاتصال بأمريكا . وان مصطفى امين طلب استدعاء رئيس الجمهورية الى المحكمة ليدلى بشهادته .

وقال له المستشار منجى الراكشى انه يعلم تماما ان الرئيس جمال عبد الناصر كلف مصطفى امين بالسفر الى الولايات المتحدة اثناء العدوان .

وقال الفريق الدجوى انه يصدق مصطفى امين ، ولكنه محرج ويرى عدم امكان استدعاء رئيس الجمهورية لأداء الشهادة فى قضية .

قال المستشار منجى الراكشى اذا كان هذا الطلب هو اساس دفاع مصطفى امين وانه اذا كان الفريق الدجوى يجد صعوبة فى طلب حضور رئيس الجمهورية فلا اقل من عرض طلب مصطفى امين على رئيس الجمهورية .

قال الفريق الدجوى : « انا محرج فى هـذا الموضوع .. وبصراحة ما اقدرش اعملها » .

ومضت الرسالة تقول : « ان فهمى سماحة (صحفى قديم) يقول ان اختيار الدجوى لمحاكمتك دليل على ثقة ولاة الأمور به »

وكان الدجوى فى احاديثه يفخر بأنه لا يحمل شهادة ليسانس ، وانه لم يدرس الحقوق ولا يعرف القانون ، وانه « محل ثقة » ولاة الامور .

وكان لا يهمه ما فى أوراق القضية . كان كل ما يهمه ما يريد ولاة الأمور ، فهو لا يحكم من أجل العدالة وانما يحكم من اجل ولاة الأمور . وكان من رأيه أن ولاة الأمور « هم كل شيء .. هم الدولة والوطن والدين . ومن يخرج عليهم أو يغضبهم فقد خرج على الدولة وخان الوطن وكفر بالله » .

وكان الدجوى يقول ان الحكم لك او عليك يتوقف على راى ولاة الأمور ، فاذا كان مرضيا عنك فهو يسعده أن يبرئك ، واذا كنت مغضوبا عليك فيؤسفه أنه سوف يقطع رقبتك » وانتهت الرسالة .

وعندما مثلت أمام الدجوى رفضت أن أتكلم أو أفتح فمى لاننى عرفت انه يريد أن يقول فى الجلسة السرية ما يريد أن يصل الى رئيس الدولة فى الميكروفون .

وفى نهاية محاكمتى وقفت ، وطلبت الكلمة من الدجوى فأذن لى ، وقلت :

« فى أثناء عدوان سنة ١٩٥٦ استدعانى الرئيس جمال عبد الناصر الى هذا المكان ــ مجلس الثورة ــ وقال لى اننى سأكلفك بمهمة قد تموت فيها ، وهى أن تكون راكبا أول طائرة تطير اثناء الضرب لتتولى الدعاية لمصر فى العالم ولتفاوض فى الجلاء عن القناة وسيناء . وفى نيويورك اختارنى الدكتور احمـد حسين سفير مصر فى واشنطون لادافع عن سمعة الجيش المصرى عندما عرضت محطات التليفزيون الأمريكى فيلما عنك « وأنت تستسلم لليهود وتشكرهم » .

ومن سخرية القدر أن يطلب الادعاء رأسى فى نفس المكان الذى اختارنى فيه الرئيس عبد الناصر لهذه المهمة الخطرة ، وأن تتولى سيادتك محاكمتى .

ولم يفتح الدجوى فمه بكلمة وأعلن انتهاء المحاكمة .

ان محاكمات الدجوى فى رايى هى تماثيل اقيمت لقضاء مصر العادل .

انها الدليل على ان قضاة مصر رفضوا ان يحنوا رؤوسهم للظلم وان يحكموا على الابرياء .. ومن اجل ذلك لم يجدوا قاضيا يقبل ان يكون جلادا ، ولهذا اختاروا الدجوى ليكون الجلاد والقاضى .

ومن اجل هذا حدثت مذبحة القضاة .. لأن قضاة مصر رفضوا ان يكونوا « الدجوى » المطلوب .

* * *

اننى أعرف شوكت التونى من وقت طويل .

اعرفه من قصصه ورواياته وكتبه وجهاده الوطنى . ولكننى اعرفه اكثر من ذلك كله من شقيقه الأصغر صديقى المرحوم ابو المجد التونى .

وكان ابو المجد صديقا عزيزا على . وكنت التقى به كثيرا فى بيت الامة وفى بيت النقراشى باشا .

ومع ان المستشار محمود مصطفى التونى كان زميلى فى الجامعة الامريكية الا ان ابو المجد كان أقرب الأشقاء الثلاثة الى قلبى .

وفى تلك الايام سنة ١٩٣٠ وما بعدها كانت تتولى الحكم وزارة اسماعيل صدقى الاولى وتحالفت مع الانجليز والملك فؤاد ، ونشرت الارهاب ، وقال صدقى باشا متفاخرا « انه أدخل الشعب المصرى فى الشقوق » .

لا احد يتكلم . لا احد يعارض . كل من يتحرك مصيره الفصل من المدرسة او السجن او محكمة الجنايات . ورفتنا من مدارسنا وحرمنا من جميع الامتحانات .

وفى تلك الايام توطدت العلاقة بينى وبين ابو المجد . وكان

حديثنا دائما عن ثورة ١٩١٩ والجهاز السرى وأعمال الفدائيين .. وكان ابو المجد يشكو دائما من ماهر والنقراشى اللذين يرفضان ان يتحدثا بشىء عن ما فعلاه من أعمال فدائية فى ثورة ١٩١٩ حتى يكون لهما خلفاء .

وذات يوم اخبرنى ابو المجد انه عضو فى عصابة جديدة تريد ان تعيد أمجاد الفدائيين فى ثورة ١٩١٩ .

وذات يوم ضرب مأمور قسم عابدين الطلبة بأمر صدقى باشا وثار ابو المجد ، وقرر ان نقوم بهجوم على مأمور قسم عابدين ونضربه ..

ثم عاد فى اليوم التالى وعدل وقال انه وجد طريقة اخرى لتأديب المأمور وجميع رجال البوليس ولم يخبرنى ما هى .

وبعد ذلك اخبرنى انهم فجروا قنبلة فى قسم عابدين ، وقامت الدنيا وقعدت واهتز الملك فؤاد لأنه شعر ان القنبلة موجهة اليه كما واهتز صدقى باشا رئيس الوزراء واعتقد انه توجد عصابة ضخمة لالقاء القنابل ولازعاج السلطات وتهديد حياة المسئولين وأسرع البوليس يعتقل عددا كبيرا من الوفديين والنواب السابقين .

وعلمت بعد ذلك ان العصابة مؤلفة برياسة الأستاذ شوكت التونى ، وأنها تضم عبد المنعم عبد الرؤوف الطالب فى المدرسة السعيدية وصديق وزميل ابو المجد والشقيق الثالث محمود مصطفى التونى ومعهم سائق سيارتهم محمد ابو الغيط وهو شاب فى مثل عمر شوكت ، وقد ولد فى بيت الأسرة وعاش كصديق لهم .. وكان ابو المجد يتحدث دائما عن تهور السائق وجراته واستعداده ان يحمل قنبلة ويلقيها على صدقى باشا رئيس الوزراء شخصيا وكان منهم سائق آخر اسمه عبد الكريم هلال وهو الآن فراش مكتب الأستاذ شوكت التونى .

وعرفت من أبو المجد ان اتجاه شوكت التونى هو الى عمل قنابل تدوى ولا تؤذى . وأن المقصود بها ارهاب من يرهبون الشعب المصرى سواء كانوا من الانجليز أو من القصر ، او من الوزراء .

ثم عرفت بعد ذلك ان والد شوكت التونى نفسه وهو مصطفى بك التونى عمدة اتليدم مشترك بطريق غير مباشر فى العصابة ، وانه كان يرسل لهم اللحم يوم الثلاثاء كل اسبوع من سوق القرية فى اتليدم مركز ملوى الى القاهرة وكان البارود يوضع فى داخل اللحم الطازج وأن ابن عمهم اسماعيل التونى فى البلد يشترك معهم ويشترى لهم البارود . ثم سمعوا ان المبشرين الانجليز يتخذون مستشفى هيرمل مأوى لهم ففجروا قنبلة هناك وكان ضابط مباحث مصر القديمة محمود البديني على صلة بالعصابة وكان يعرف سر القنبلة ويبحث عن واضعيها ! . ثم وضعوا قنبلة ثالثة فى الجيزة بجوار منزل احد وزراء صدقى باشا . ثم قراوا خبرا كتبته فى مجلة روز اليوسف بان الأمير محمد على اتفق مع الانجليز على فصل مصر من السودان على أن يكون ملكا على السودان فوضعوا قنبلة انفجرت فى قصر الأمير محمد على ، وعدل بعدها الأمير عن المشروع بعد أن ارتعدت فرائصه هلعا .

وعلموا ان المندوب السامى البريطانى يعارض عودة دستور سنة ٢٢ ففجروا قنبلة فى شباك دار المندوب السامى البريطانى فى قصر الدوبارة .. وقامت الدنيا وقعدت فى لندن وفى القاهرة وقيل ان ثورة ١٩١٩ ستعود من جديد . وكانت اجرا قنبلة فى تاريخ مصر بعد حادث السردار .

ثم علموا ان مفاوضات تجرى سرا بين رئيس الوزراء توفيق نسيم باشا والمندوب السامى البريطانى ضد عودة حكم الشعب .. فوضعوا قنبلة امام حديقة توفيق نسيم باشا فى الهرم فازعجت الدولة بجميع اجهزتها وعجزت هذه الاخيرة عن ان تعرف اى شىء من هؤلاء الشبان .

وبدات الدولة تلفق الاتهامات للابرياء ، وتقدم المتهمين الابرياء الى محكمة الجنايات بتهمة القاء هذه القنابل .

وكان شوكت التونى بنفسه هو الذى يتولى المدافعة عنهم وبراتهم جميعا محكمة الجنايات .

وتعمدت العصابة الصغيرة أن تلقى القنابل اثناء المحاكمات لتثبت للقضاة ان هؤلاء الشبان الذين يحاكمون امامها ابرياء .

وفى سنة ١٩٣٦ عقدت المعاهدة بين مصر وبريطانيا وتصورنا ان الحرب بيننا وبين الانجليز قد انتهت .

وفكر أبو المجد ان تنشر مذكراته عن هذه القنابل التى دوخت الحكومة والدولة وبدات انا ونشرت فصلا عن هذه المذكرات فى مجلة الدنيا المصورة .

وكانت حكومة النحاس باشا فى الحكم .

واعترضت الحكومة على نشر هذه الأسرار الخطيرة وأمرت بوقف نشر هذه المذكرات .. وقال النحاس باشا ان الجريمة لم تسقط بعد .

وبقيت هذه الأسرار مدفونة لا يعرفها كثيرون وهى ان شوكت التونى المحامى هو زعيم العصابة الوطنية التى دوخت حكومة اسماعيل صدقى سنوات طويلة وأن هذه العصابة ايضا كانت مسئولة عن عملية تهريب الفريق عزيز المصرى باشا الى خارج مصر اثناء الحرب العالمية الثانية ..

وكانت مهمة عزيز المصرى التى كلف بها هى الحصول على قرار من المانيا وايطاليا بالاعتراف باستقلال مصر اذا انتصرت فى الحرب العالمية .

وسقطت طائرة عزيز المصرى بقرب قليوب وفشلت المهمة الوطنية الخطيرة .

ومن سخرية القدر ان زعيم هذه العصابة التى دوخت الانجليز وضع تحت الحراسة ووضع فى المعتقل ومات شقيقاه عضوا العصابة موتا مريبا .

وظهر ان جريمة شوكت التونى التى لا تغتفر ان الفريق محمد فؤاد الدجوى رئيس المحكمه العسكريه العليا قدم تقريرا الى مراكز القوى يقول فيه « لاحظنا ان شوكت التونى يدافع عن المتهمين بحرارة ، رغم اننا حذرناه عدة مرات من جسامة ما يفعل ، وأن المتهمين أمام المحكمة من أعداء الوطن » .

ولأن شوكت التونى يدافع بحماسة وجراة واستماتة وروح عدائية للنظام عن المتهمين الأبرياء فى قضية حسين توفيق وفى قضية الاخوان المسلمين . وضع تحت الحراسة ، وخربوا بيته ومكتبه ووضعوه فى المعتقل ثمانية عشر شهرا ، وشردوه ، وضيقوا عليه الخناق ، ليموت كما مات شقيقاه ابو المجد التونى ومحمود مصطفى التونى ..

ولم يمت شوكت التونى .

بل عاش ليروى قصة الدجوى .

١٩٧٥/٤/٢٠

مصطفى أمين

تقديم



● الدجوى ●

كنت أكتب :

وانا دائما اكتب ، فكل قول ، كل حادث ، كل صلة ، كل سرور ، كل حزن يتحول عندى وعلى شباة قلمى الى سطور .

كنت أكتب الجزء الثانى من كتاب المحاماة وفيه فصول طوال كطول الدهر اذا لؤمت ايامه ، عراض كعرض الأفق اذا رحبت ساحاته عن المحاكم الاستثنائية (محاكم الغدر ومحاكم الشعب ، ومحاكم الثورة ومحاكم أمن الدولة) .

وكنت اكتب كتابا سميته « أيام بلا شمس ، وليال بلا قمر » هى الحقبة التى بدأت فى سبتمبر سنة ١٩٦٦ يوم أن صدق الظالم على احكام الاعدام فى قضية الاخوان المسلمين وكنت قد بعثت اليه بخطاب عن احد المتهمين

وهو « مجدى عبد العزيز » وستكون رسائلى الى عبد الناصر صفحات كتاب مستقل .

يوم ٥ سبتمبر سنة ١٩٦٦ صدر الأمر باعتقالى على علبة سجائر بامضاء عبد الحكيم عامر وبأمر عبد الناصر والقى بى وانا فى عيد ميلادى السابع والخمسين فى ليمان ابى زعبل .. فى الليمان نفسه .

وقد بدأت الكتاب هناك على أسفلت ابو زعبل واتممت جزءا منه على أسفلت طرة وكنت قد جعلت له عنوانا هو « ٨٠٠ يوم » وهذه المدة تمثل فى العد أيام السجن ١٨ شهرا وأيام المحاكمات تبدأ منذ وكلت عن ثلاثة من المتهمين فى قضية حسين توفيق .

وكنت أكتب أيضا عن « السجون التى تعاملت معها » أو السجون التى كانت لى نزلا وقد بدأتها « بحجز » قسم عابدين سنة ١٩٢٠ وانا تلميذ فى مدرسة القربية الابتدائية وقبض على فى مظاهرة انا وزميلى الدكتور حسن ابو خطوة الأستاذ السابق بقصر العينى وزميل نسيته اسمه آدم .. فاعترفت باننى كنت فى المظاهرة فحبست واخلى سبيل زميلى وهما يبكيان على » .

ثم استدعانى مأمور القسم بعد ساعات وقال للضابط « بقى التلميذ الشجاع الذى اعترف صادقا تحبسه ؟ اذهب يا بنى فانت طليق » ثم الى سجن قسم السيدة زينب مرارا وتكرارا ثم الى سجن التخشيبة ١٩٢٤ ، ليلة واحدة بمناسبة حادثة السردار وسجن الاستئناف (٤ أيام) وسجن مصر (قرة ميدان) اربعين يوما فى نفس الحادث .

ثم سجن المحافظة (١٩٢٨) أيام محمد محمود باشا

ثم سجن الاستئناف سنة ١٩٣١ (أيام قنبلة طما)

وسجن الأجانب (مارس سنة ١٩٤١) فى قضية مؤامرة على الجيش البريطانى وسجن الأجانب (يونيه سنة ١٩٤١) فى قضية عزيز المصرى .

واخيرا (١٩٦٩) ليمان أبى زعبل (فبراير سنة ١٩٦٧ زنازين المخابرات) وفبراير سنة ١٩٦٧ الى ١٩٦٨ سجن طره .

ومرت فى خيالى رؤى بدأت من عصر قديم فى التاريخ ، ربما يوم قتل قابيل اخاه هابيل ، أول جريمة قتل ، واول قاتل ، واول قتيل .. ولم يحاكمه احد غير ضميره ، ثم حساب الله وعقابه .

« **لئن بسطت الى يدك** لتقتلنى ما انا بباسط يدى اليك لاقتلك انى أخاف الله رب العالمين . انى أريد أن تبوأ باثمى واثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين . فطوعت له نفسه قتل اخيه فقتله فاصبح من الخاسرين » .

وبدأت مع بزوغ فجر المدنية محنة الرأى الحر ، وسقراط فى أول محاكمة يذكرها التاريخ سقراط المعلم الأول قضوا عليه بالموت بالسم وارغموه على ان يتجرعه راضيا ، وفنى قضاته وبقى سقراط .

ومضى ركب الأحرار الأبرار ، والقديسين الشهداء يتعرضون لشتى انواع الظلم وجاء الاسلام وكانت أفجع أيام المحنة الأزلية — محنة الرأى الحر هى الأعوام الثلاثة عشر التى قضاها الرسول الكريم صلوات الله عليه فى مكة يصب عليه الكافرون عباد الأصنام وعلى من اتبعه من المؤمنين اقسى الوان العذاب والتنكيل حتى استقر العالم على دين يؤكد للخلق العدل والحرية والحق . ويضمن لهم الأمان كل الأمان . ومضى الزمان يحمل المدنية على كتف ومحنة الرأى الحر على الكتف الأخرى ، فلا تسبق احداهما الأخرى

الا بمقدار الخطوة تخطوها الساق اليمنى وتلحقها اليسرى ، وعلا صوت الاحرار وصدرت المواثيق التى تضمن مع الحرية المحاكمة العادلة من الاسلام الى الماجنا كارتا فى انجلترا الى اعلان الحقوق فى امريكا الى اعلان حقوق الانسان فى الثورة الفرنسية الى خطبة تشرشل فى سنة ١٩٤٤ فى روما التى اعلن فيها الى الشعب الايطالى والى شعوب العالم المبادىء التى من اجلها تحارب بريطانيا وجاء فى المبدأين الثالث والرابع .

« هل المحاكم آمنة من اكراه السلطة التنفيذية ومن تهديد الغوغاء وضغطهم ؟ وهل هى بريئة من التواطؤ مع حزب سياسى معين ؟ . » .

« **هل هذه المحاكم** تطبق قوانين حرة مستقرة تتفق مع العقل البشرى ومع المبادىء العامة للكرامة والعدل » (مجلة الايكونوميست عدد ٣/٩/١٩٤٤) .

كانت هذه المبادىء هى خلاصة ما يجرى عليه القضاء فى عصر الديموقراطية من القرن التاسع عشر الى القرن العشرين .. او بالتحديد حتى قام زمان الحكم المطلق الفاشية فى ايطاليا ، وديكتاتورية فرانكو فى اسبانيا والنازية فى المانيا .

بعد الحرب .

وبدات بعض الدول الشرقية تنكر وتتنكر للقضاء .. واباحت التعذيب ، وحق الاستنطاق او اهدار حق الصمت .

ثم اخطات الدول الغربية خطا فاحشا بمحاكمة نورمبرج .

ومن سيبيريا الى آخر الكرة الارض بدات مذابح القضاء ، ومجازر العدالة ، وتنكرت الدول للمواثيق التى اعلنت وكتبت بدماء الشهداء من الدعاة لها من المفكرين والفلاسفة ومن المجاهدين لكسبها والحفاظ عليها .

وفى مصر .. تمتع الشعب بنظام قضائى وطنى شق طريقه بعزم وثبات وتصميم بين قضاء مختلط مغرض يعمل لحماية حقوق الاجانب — فيما عدا والحق يقال — محكمتها الاستئنافية العليا — وبين قضاء شرعى جمع بين النقيضين .. الدقة فى الاحكام الشرعية، والتوسع فى البحوث الفقهية ومتانة الخلق وبين الانحراف والخضوع للحاكم ، وخاصة للخديويين والسلاطين والملوك .

اما القضاء الاهلى فكان فخرا لمصر منذ انشائه الى ان عدا عليه العادون او حاول تحطيمه المخربون .. ولكنه سرعان ما اعتدل بعد ميل قليل ، وثبت بعد اهتزاز طفيف . نسأل الله له السلامة .

وليس فى تاريخ هذا القضاء الطويل انحراف ولا خونة ولكن فى هذا التاريخ مفاخر تذكر ولا تنكر فتحمد وتشكر .

ولما اراد المحتل — ويشهد انه طالما عاون على حفظ كيان القضاء الاهلى سليما من ان يرتكب باسم القضاء جرائم كجريمة محاكمة دنشواى فشكل محكمة مخصوصة من مصريين ضعاف وانجليز .

ولما زلزل زلزاله من ثورة ١٩١٩ شكل محاكم عسكرية انجليزية وقضى باحكام هى الظلم كل الظلم .

ثم قامت ثورة ٢٣ يولية او حركة الجيش كما سماها القائمون بها او الانقلاب العسكرى كما يسميها البعض شكلت محاكم متعددة الاسماء — المحكمة العسكرية العليا — محكمة الثورة ، محكمة الغدر، محكمة الشعب ..

وهى محاكم لى راى فيها سطرته فى كتاب اسمه ((القضاء الاستثنائى)) وسيصدر حين يستوى الزمان لنشره وتوزيعه !

اما هذا الكتاب فانه عن محكمة شكلت برئاسة الفريق أول محمد فؤاد الدجوى منذ سنة ١٩٥٤ ومضت تحاكم وتعذب بالقول والسب والايذاء باللسان المتهمين وتجرمهم ، وتخدش كرامتهم ، وتستبيح

ما يقولون به من تعذيب وقع عليهم ، ويستقبح من محاميهم ان يتحدثوا عن التعذيب كأنه امر مفروض ، ومقرر ، ولا ينقصه الا ان يوضع له نص فى القانون يحميه ويجعله مشروعا كما وضع نص الاعتقال والحراسة فى قانون الحريات !!

وهى محكمة حضرت امامها فى اول انعقادها ، وتكرر حضورى حتى اننى فى وقت كنت اترافع عن عشرات من المتهمين الاحرار الأبرياء .

ولقد رايت ان هذه المحكمة جديرة بالتصوير ، والتصوير القلمى فكتبت هذا الكتاب .

واننى اسال الله وادعوه ان يستجيب لسؤالى ويجيب دعائى بان يجنبنى الزلل ، ويبعد قلمى ولسانى وخطوتى عن الخطل والخطا .

« ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا او اخطانا » .

اما انت ايها القارىء فاقول لك . وقد تكون لا تعرف عنى شيئا :

والله يعلم ويشهد اننى ما سعيت فى حياتى لمال أو مجد وانما استمعت الى قوله تعالى « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » ووجهت عملى الى الله حسبة وحسابا . حسبة ليوم تشخص فيه الأبصار ولا ظل الا ظله ، وحسابا لانه هو سبحانه وتعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور وهو صاحب العقاب والثواب ، اما البشر فزبد ظلمهم وهشيم عقابهم ، وباطل حكمهم (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) .

اما اليوم فهو كل يوم فى حياة البشرية وما قبلها وما بعدها .

اما اليوم فهو كل لحظة وثانية وثالثة من عمر كل مخلوق يحيى ويموت وينشر ويبعث .

واننى أعلم أن القارىء يثقل عليه ان يتحدث الكاتب عن نفسه وقد كتبت كتاب « المحاماة فن رفيع » فى قرابة ٥٠٠ صحيفة فلم اذكر اسمى ، ولا نسبت الى نفسى عملا ، حتى لا يضجر القارىء منه او يستثقل ظل كاتبه . وأنا حين أكون قارئا او مستمعا ابغض من يقول « أنا » وقد قرأت كلمة لحكيم او هى حديث شريف (أعوذ بالله من قولة أنا) ولكن ما الحيلة وأنا اتحدث عن عمل قارفته بنفسى وكنت أحد طرفى الحوار فيه وهو الذى يجرى بينى وبين الدجوى اشهرا طويلة ثم كنت انا الزائر للمتهمين الاشراف فى السجن الحربى فهل تقبل أمانة التاريخ أن أقول (وقال محامى الدجوى كذا وكذا) سيقول القارىء ومن هذا المحامى ؟ ولماذا لم يذكر الكاتب اسمه ؟ لعله يقول قولا زائفا ، ولعله يخاف ، ولعله يجامل ؟!

لا . اننى لا أزيف ، ولا أخشى الا الله ، ولا أخاف غير « العيبة » كما يقول اهلى فى صعيد مصر وريفها وهى « الدنية » التى تعيب فاعلها ، ولم أجامل فى الحق أو غير الحق صديقا عزيزا أو عدوا لدودا .

ثم اننى اقول وكثير من زملائى — متعهم الله بالصحة والعمر الطويل احياء وبخير حال . زهير جرانة ، محمد عبد الله ، عبد الفتاح حسن ، حسن الجداوى ، على عبد المجيد ، محمود عبد اللطيف ، عبد الحميد السلوى ، من كرام المدافعين **الذين ادوا واجبهم خير** اداء امام هذه المحاكم .

ثم ان كثيرا من المتهمين الأشراف الذين ترافعت عنهم او كانوا قد حضروا فى هذه القضايا يقراون ومن حق أى واحد منهم ان يعقب على ما اقول .

وكذلك هناك عدد كبير من السادة وكلاء ورؤساء النيابة العامة وهم الآن قد بلغوا مناصب مستشارين كالأستاذ صلاح نصار

وسمير ناجى وعبد السلام محمد وغيرهم وهناك عدد من السادة ضباط الجيش الذين شاركوا الدجوى وغير الدجوى « من رؤساء محاكم الدجوى » ـ يشهدون وان كنت أغلقت عليهم فى هذا الكتاب بما سطرت من الحق اذ لاذوا بالصمت .

لذلك .. ستقرأون لفظ « أنا » ومشتقاته مثل قلت ودخلت وخرجت وكتبت .. الخ فلا تحسبوا اننى أنشد اعجابا او مجدا أو شهرة فقد التهم تقدم السن كل الرغبات وكم أتمثل اليوم بقول شوقى شاعر الخلود .

« ودعت أحـــلامى بقلب باكى   ولمت من طرق الملاح شباكى »

فانا ودعت الشهرة والمال والمجد بقلب راضى .

وان كان قلبى لا يبكى .

اما الملاح والشباك فقد ضللت طريقهن من زمن بعيد .

ايضاح اخير

عندما استدعيت الى مقر المخابرات العامة فى ٢٠ فبراير سنة ١٩٦٧ ووضعت عصابة سوداء على عينى ، كما اوثقوا معصمى « بالقفل الحديد (الكلابش) وساقونى فى سيارة مغلقة تسبقها سيارة نجدة بصفيرها مردفة بسيارة اخرى ترد عليها الصفير . وتقابلت مع السادة اعضاء المخابرات ولهم صفحة اخرى ـ ربما فى هذا الكتاب وربما فى كتاب آخر انطقنى الله ببضع كلمات يكفينى اثباتها هنا توضيحا لحقيقة اخرى لعيون القارئين سواء فى هذا العصر او فى مقبل الأيام قربت هذه الأيام ام بعدت .

قالوا لى

« ان التقارير مجمعة على كراهيتك النظام الحاضر وللسيد الرئيس جمال عبد الناصر » قلت لهم :

« أحب أن أقول لكم حقيقة عن نفسى ـ انا لم ابغض احدا فى حياتى لأن قلبى غير معد من الله للبغضاء وانما هياه الله بديع السموات والأرض للحب .

وانمـــا أنا احارب ، ولا أكره ، وأقاتل ولا أبغض ، وأناضــل ولا اشنؤ ، وعندما تنتهى معركتى وهى دائما دفاعية سنة الله فى دين الاسلام ـ ولم تكن فى حياتى معركة بداتها بالهجوم على احد الا دفاعا عن حق مسلوب او عرض مثلوب أو مال مغصوب .

وعبد الناصر ـ وهنا صرخو فى وجهى . وضربوا بقبضات أيديهم احتجاجا على الطاولة الفاخرة التى يجلسون اليها وتحول بينى وبينهم وقالوا « اذكر السيد الرئيس بقولك السيد الرئيس جمال عبد الناصر » وضحكت وقلت لهم .

« لا عليكم فانه هو يقول عن رسول الله وسيد الخلق وامام الأنبياء » :

« محمد بيقول الناس لهم حق مشاع فى الماء والعشب » .

فعندما اقول عبد الناصر لا يغضبه وهو القائل « محمـد » واعتقد انكم تشاركوننى فى حساب الفرق الكبير الى اقصى غاية بين سيدنا محمد والرئيس جمال عبد الناصر .

واتممت قولى (وعبد الناصر لا يهمه الحب والبغض لأنه يدور فى تلك السياسة والقيادة والعمل البعيد المدى فهو يهمه نجح أم فشل) ، اثر او لم يؤثر ، أفسد ام أضر .. هذه الدورة الواسعة التى تدور مع دوران الكرة الأرضية فتعلو الى اسماع سكان المعمورة وتدور مع الزمان ، وتدور مع التاريخ .. ثم هى أولا واخيرا تدور مع ما أمر الله به وما نهى عنه .

فماذا يهم عبد الناصر ان يحبه شوكت التونى نزيل أبو زعبل او يكرهه ؟ !

واسمحوا لى أن أعتب عليكم وانتم تنزلون به الى مستوى عبد الحليم حافظ ومحمد قنديل وغيرهما الذين يهمهم ان يحبهم الناس او لا يحبونهم .

وسكتوا على مضض — ولا شك عندى انهم كانوا فى قرارة نفوسهم مقتنعين موافقين لم قال احدهم .

« والثابت من التقارير ان فى نفسك مرارة من السيد الرئيس جمال عبد الناصر فاذا كنت تتحدث مع احد من اصدقائك وزملائك كنت لطيف الحديث ، عذب الكلام منمق العبارات حتى اذا جاء ذكر السيد الرئيس اندفعت بلا وعى ولا تدبر تشتم وتسب وكأن بينك وبينه ثأرا . . وهذا يتكرر ربما يوميا فلماذا هذه المرارة ؟

وأجبت قائلا :

« أود أن أقول درسا فى علم النفس وعلم التربية » .

فقال كبيرهم واشهد انه لم يكن يضيق بى كثيرا .

« قل »

وقلت

« المرارة جزء من النفس تولد معها او لا تولد . وهذه المرارة تبدو من بعض الناس فى اقوالهم وتصرفاتهم مهما ارضاهم الله من نعمته ووهبهم من الأرزاق .

« وهى منتفية عند بعض الناس مهما كان بهم خصاصة فهم راضون بما قسم الله لهم . هذا نوع طبيعى خلقى من المرارة . وهناك مرارة تكتسب من الوسط والبيئة التى يتربى فيها الطفل والصبى فينشأ ناشىء الفتيان على ماعوده والده من ضيق وكراهية وبغضاء او متأثرين بسلوك الوالدين فاذا كان الوالد وحشا مسيئا نذلا ، جبانا ، سكيرا مقامرا وزانيا فاحشا مغتصبا للحقوق ، آكلا اموال

الناس الباطل او كانت أمه فاحشة كاذبة ، ضالة مضلة ، نمامة ، توقع الأهل والجيران بعضهم ببعض من الوشاية والنميمة .

عندئذ ينشأ الفتى — او الفتاة — اما فى نفوسهم مرارة للناس بما اكتسبوا واما فى نفوسهم مرارة من والديهم فهم على نقيضهم يسلكون وبخلافهم يعملون ، وهو التأثر العكسى .

اما العبد الفقير لله فقد نشأ فى بيت كله الحب ، والتماسك ، والتفاخر بالعمل الصالح قبل التفاخر بالآباء والأجداد وهم يعلموننا من هم آباؤنا واجدادنا وان لم يعد الطفل الى الجد الثانى عشر على الاقل الذى نزل مع قبيلة من أرض الحجاز فهو طفل غير جدير بالانتساب الى العائلة وعلمونا قرى الضيف وكانوا يشركوننا فى حمل الزاد والماء للضيوف وعلمونا الثورة للعرض والاندفاع الى الثار ، والموت فى سبيل نصرة الضعيف ، وعلمونا الرضاء بما قسم الله فرضينا سواء فى الوقت الذى لا نجد فى بيوتنا التى تزيد عن المائة بيت جنيها واحدا أو الوقت الذى كنا نرى فيه ايراد الأرض يحمل فى طسوت الغسيل .

لم أعرف المرارة ، ولم ار امى وابى يحسدان احدا على نعمة مهما عظمت عنده ومهما ضؤلت فى ايديهم او انعدمت ، ولم اسمعهما يحقدان على احد بل طالما — وانا صغير كنت اعيب على ابى (وقد كان عمدة لمدة ٥٠ سنة) تسامحه الدائم المستمر فكان يرد على قائلا « غدا عندما تكبر ستكون اكثر تسامحا وفعلا عندما تخطيت فترة الشباب الملتهب آمنت بكلمة ابى واعتنقتها فعانيت منها ولا ازال اعانى » .

وهذا الذى قلته للمخابرات هو موجه ايضا الى القارىء فلست بحاقد على احد ولا مبغض لأحد ولا متجنى على أحد .

انما أقول الصدق ، واسطر الحق ، وانقل اليك بأمانة ما جرى او ما استشعرته من احاسيس وانفعالات .

محاكمات الدجوى

كيف نشأت محكمة الدجوى ؟



لم تولد محكمـة الدجوى فجاة ..

بل كان لهـا زمان حمل ،وتوجـع ، ومخـاض .. ثم ولدت .

وكان للمرحلة التى سبقت محكمة الدجوى محاكم كما ذكرنا تنوعت أسماؤها . وعندما يحين الزمان لنشر كتابى عنها سيقرأ الناس عجبا .

شبه قريب ووراثة كاملة ..

وتدبير محكم مقصود يهدف الى غاية مرسـومة ، محددة .

وهذا يجعلنا نكتب أول ما نكتب لكى نكون امنـاء عن تاريخ القضاء فى مصر .

القضاء
فى
مصر



ليس هذا بحثا تاريخيا ، ولا فلسفيا ولكنه جزء من تاريخ مصر سواء قبل قضاء الدجوى وما سبقه من الوان من القضاء منذ سنة ١٩٥٢ . أم من قبل ذلك بسنوات طوال .

ذلك لأن هناك حقيقة ثابتة ، ملموسة ، مرئية ، هى أنه على قدر تقدم الدولة حضاريا تكون درجة الكمال فى قضائها . فأذا أراد سائح أن يدرك مدى تقدم دولة قد نزل بأرضها فان عليه أن يقصد الى دور القضاء فيها ويراقب سير العدالة أمامه .

نزلت لندن فى زمن ماض بعيد عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية واول ما زرت من معالمها محكمتها المشهورة اولد بيلى ووجدت محكمة جزئية فيها تنظر قضية شاب ملون من أبناء افريقيا . ودارت المحاكمة كالآتى :

الشاهد الأول مستر فلان « كمسارى أوتوبيس »

وقبل ان ينطق بعد ان ادى التحية سأله القاضى .

س : على اى اساس طلبت من هـذا السيد (فلان) ان يترك الأوتوبيس وينزل بعد ان ركب ثم استدعيت له رجل البوليس ؟

ج : لانه لم يتبع القوانين التى تقضى بأن يقف فى طابور فى موقف الأوتوبيس وركب عندما توقف الاوتوبيس عند اغلاق اشارة المرور .

س : الا تدرى ان هذه القوانين التى تذكرها قد زالت بانتهاء الحرب ؟

ج : لا يا سيدى

س : الم ينبهك القائمون على تسيير الأوتوبيسات بذلك ؟

ج : لا

س : هل كان هناك خطر على هذا السيد او على احد من الركاب الآخرين او على السيارة من ركوبه عند وقوفها فى اشارة المرور ؟

ج : لا يا سيدى . لقد كانت السيارة قد وقفت تماما وكان الركاب جالسين فى اماكنهم .

القاضى ـ اذن تفضل .

واشار اليه بالجلوس فى مكان فى القاعة

واستدعى الشاهد الثانى السيد كونستبل مستر (فلان ؟

وحضر وادى التحية العسكرية التى تثير الاعجاب بقامته السمهرية وبناء جسمه المتين وملابسه الكاملة الأناقة وسأله القاضى :

« كيف تطيع عامل السيارة وتقبض على هذا السيد وتنزله من السيارة » وتصحبه من مكان نزوله الى قسم الشرطة وهى مسافة تقدر بمائة متر ؟ الم يخطر ببالك أن يراه أحد مواطنيه او اصدقائه او زملائه فيظن به الظنون وقد يعتقد انه ارتكب جريمة تخدش الشرف ؟ الم يكن فى وسعك ان تطلع على جواز سفره او بطاقة اثبات شخصيته وعنوانه وتتركه ينصرف ؟

ورد العسكرى بعد أن أدى تحية رائعة

« اننى آسف كل الأسف يا سيدى » .

ونطق القاضى بالحكم :

حكمت المحكمة بالزام الخزانة البريطانية بأن تدفع للسيد (فلان) مبلغ خمسين جنيها استرلينيا فى ظرف ٢٤ ساعة .

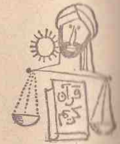
وحيا القاضى المتهم وهو يقول له :

« آسف »

ايمكن أن يجرى هذا فى بلاد نصف متمدينة ؟

انما يقع هذا فى بلد قدس القضاء ، ورفع مرتبته فوق مرتبة رئيس الوزراء فان القاضى يختار من بين خيرة المحامين ويجرى عليه مرتب اكبر من مرتب رئيس الوزراء ويودع باسمه يوم تعيينه فى بنك من البنوك مبلغ عشرين ألف جنيه لا يسئل عن اى مبلغ يسحبه منه يغطى مباشرة .. ويقال انه لم يحدث ان سحب قاضى اى جزء من هذا المبلغ .

العدل في الاسلام



ان الاسلام يقوم على العقيدة والفرائض

كما يقوم على التشريع ويقوم ثالثا على مكارم الأخلاق والجزء التشريعى هو العدل

ولقد بحثت فى كتاب وضعته ــ ولم يطبع ــ عن « العدل والظلم وحكم الاسلام » فلم اجد كتابا مقدسا ولا فلسفة فيلسوف ولا راى مفكر من قادة الفكر قد جمع كالقرآن فأوعى فى موضـوع العـدل والظلم .

اول قاض فى الاسلام :

يقول بعض الفقهاء ان النبى صلوات الله عليه هو أول قاض فى الاسـلام .

ولقد وصفه الله بانه رسول وبشـير ونذير . وقد هبط عليه جبريل الامين برسالة الاسلام فادى الأمانة ، وابلغ الرسالة واشهد الله على ذلك بقوله اللهم ، قد بلغت فاشهد .

ولكنه أيضا كان مأمورا بالحكم فقد قال الحق « فاحكم بينهم بما انزل الله » .

وقال جل من قائل (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) .

ولعل مما يشرف القضاء ويرفعه الى أسمى منزلة بين البشر ان يكون محمد سيد الخلق صلى الله عليه وسلم قاضيا وبامر الله .

ولقد ورد في الحديث الذى رواه الامام احمد في مسنده عن ام سلمة هند زوج النبي صلى الله عليه وسلم انها قالت جاء رجلان يختصمان في مواريث بينهما قد درست ليس لدى احدهما بينة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « انكم تختصمون الى رسول الله وانما انا بشر ولعل بعضكم الحن بحجته من بعض وانما اقضى بينكم على نحو ما اسمع فمن قضيت له من حق اخيه شيئا فلا ياخذه فانما اقطع له قطعة من النار يأتي بها اسطاما (المسعار الذى يحرك به النار ليسعرها) في عنقه يوم القيامة فبكى الرجلان وقال كل واحد منهما « حقى لأخى » .

وقد اقام الحدود وقضى بالقصاص ووضع صلوات الله عليه دستورا للعدل القضائي فلقد جيء له بزان مقر بجريمته فقال له رسول الله عليه افضل الصلاة والسلام « لعلك المت ؟ فقال لا يا رسول الله » .

فعاد يقول له « لعلك قبلت ؟ فقال لا يا رسول الله » .

فعاد الرسول يقول له لعله يعدل عن اقراره : لعلك فاخذت ؟ »

فقال لا يا رسول الله

فلما امر بانزال حد الله عليه جرى من الموكلين برجمه وعادوا بعد رجمه يقصون على الرسول الامين امر هربه فغضب الرسول ...

وقال لهم — عليه الصلاة والسلام أو كما قال « اما سألتموه عما دفعه للهرب فقد يكون قد عدل عن الاقرار » .

وعنفهم على ذلك .

وقرر رسول الله — صلوات الله عليه — حصانة المسكن فقد اشتكاه احدهم في رجل تلصص عليه من ثغرة في الباب فقال له الرسول الكريم « لو فقأت عينه لم تلزمك الدية » .

وفي عهد سيدنا عمر رضى الله عنه وأرضاه نظم القضاء في الامصار وبعث بالقضاة وزينهم بكتابه الى «أبى موسى الأشعرى» وهذا نصه :

. اما بعد فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم اذا أدلى اليك وانفذ اذا تبين لك فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له . آس الناس في مجلسك وفي وجهك وقضائك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك . البينة على المدعى واليمين على من انكر والصلح جائز بين المسلمين الا صلحا احل حراما او حرم حلالا ومن ادعى حقا غائبا او بينة فاضرب له امدا ينتهى اليه فان بينه أعطيته بحقه وان اعجزه ذلك استحللت عليه القضية فان ذلك هو ابلغ للعذر واجلى للعمى ولا يمنعك قضاء قضيت فيه اليوم فراجعت فيه رايك فهديت فيه لرشدك ان تراجع فيه الحق فان الحق قديم لا يبطله شيء ومراجعة الحق خير من التمادى في الباطل والمسلمون عدول بعضهم على بعض الا مجربا عليه شهادة زور او مجلودا في حد او ظنينا في ولاء او قرابة فان الله تعالى تولى من العباد السرائر وستر عليهم الحدود الا بالبينات والايمان . والفهم الفهم فيما أدلى اليك مما ورد عليك مما ليس في قرآن ولا سنة ثم قايس الأمور عند ذلك واعرف الأمثال ثم اعمد فيما ترى الى احبها الى الله وأشبهها بالحق واياك والغضب والقلق والضجر والتأذى بالناس والتنكر عند الخصومة او الخصوم فان القضاء في مواطن الحق مما يوجب الله

ما بينه وبين الناس ومن تزين بما ليس فى نفسه شأنه الله فان الله تعالى لا يقبل من العباد الا ما كان خالصا فما ظنك بثواب عند الله فى عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام عليك ورحمة الله » .

وقال سيدنا الامام على كرم الله وجهه فى كتاب الى عامله بمصر فوض فيه له اختيار القاضى فقال « ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك فى نفسك ممن لا تضيق به الأمور ولا تمحكه الخصوم ولا يتمادى فى المذلة ولا يحصر من الفيء الى الحق اذا عرفه ولا تستشير نفسه على طمع ولا يكتفى بأدنى فهم الى اقصاها . اوقفهم فى الشبهات وآخذهم بالحجج واقلهم تبرما بمراجعة الخصوم واصبرهم على كشف الأمور وأصرمهم عند اتضاح الحكم . لا يزدهيه المراء ولا يستميله اغراء وأولئك قليل ثم اكثر تعاهد قضائه وافسح له فى البذل ما يزيل علته وتقل معه حاجته الى الناس واعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك فيأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك » .

اول قاض فى مصر :

جاء فى حسن المحاضرة للسيوطى قال ابن عبد الحكم أول قاض استقضى بمصر فى الاسلام كما ذكر سعيد بن عفير عثمان بن قيس بن أبى العاص وذلك ان عمر بن الخطاب كتب الى عمرو بن العاص أن يجعل كعب بن ضنة على القضاء فأرسل اليه عمرو فأقره كتاب أمير المؤمنين فقال كعب وكان قاضيا فى الجاهلية « والله لا ينجيه الله من أمر الجاهلية وما كان فيها من الهلكة ثم يعود فيها ابدا اذ نجاه الله منها » فأبى ان يقبل القضاء فتركه عمرو .

كان القاضى المسلم لا تأخذه فى الحق لومة لائم يسوى فى مجالسه بين الأمير والحقير وبين الشريف والوضيع .

دخل الأشعث بن قيس على شريح القاضى فى مجلس الحكومة فقال له شريح مرحبا وأهلا بشيخنا وسيدنا وأجلسه معه فبينما هو جالس معه اذ دخل رجل يتظلم من الأشعث فقال له شريح قم فاجلس مجلس الخصم وكلم صاحبك قال بل أكلمه فى مجلسى فقال له لتقومن أو لآمرن من يقيمك فقام امتثالا لأمر القضاء . ومن الحادثة الآتية يتبين أيضا جلال القضاء . حدث ان سعيد الخير ابن الأمير عبد الرحمن الداخل كانت له خصومة أمام القاضى ابن بشير فوكل وكيلا يخاصم عنه أمام القاضى وكانت بيده وثيقة فيها شهادة شهود ماتوا ولم يبق حيا من الشهود الا الأمير الحكم وشاهد آخر فشهد ذلك الشاهد لسعيد الخير وضرب القاضى أجلا لسماع شهادة الشاهد الثانى فدخل سعيد الخير بالكتاب الى الحكم وأراه شهادته فى الوثيقة وقد كان كتبها قبل الامارة فى حياة ابيه وعرفه مكان حاجته الى ادائها وكان الحكم بأربعة سعيد الخير فقال له يا عم لسنا من أهل الشهادات وقد التبسنا من هذه الدنيا بما لا تجهله وتخشى ان يوقفنا مع القاضى موقف مخزاه كنا نفديه بملكنا فصر فى خصامك حيث صيرك الحق اليه وعلينا خلف ما نقص فأبى عليه وقال سبحان الله وما عنى ان يقول قاضيك فى شهادتك وانت وليه وما زال به ملحا فى طلبه حتى ارسل الحكم الى فقيهين من فقهاء وقته وخط شهادته بيده فى قرطاس وختم عليها بخاتمه ودفعها الى الفقيهين وقال لهما هذه شهادتى بخطى تحت ختمى فأدياها الى القاضى والقياه بها فى مجلسه وقت قعوده للسماع من الشهود فأدياها اليه فقال لهما قد سمعت منكما فقوما راشدين فى حفظ الله تعالى وجاء وكيل سعيد الخير ووقف مدلا وقال له أيها القاضى قد شهد عندك الأمير لابد من الاعذار فى الشهادات فمن كان يجترئ على الدفع فى شهادة الأمير لو قبلتها . ولو لم اعذر لبخست المشهود عليه حقه . رحم الله زمانا هذا قاضيه وذلك اميره قد أخلص كل منهما لدينه وأمانته تمسك القاضى بالحق . فألهم الله الأمير احترامه ومحبته .

الامام ابو حنيفة يأبى ولاية القضاء :

وكان الامام ابو حنيفة أول العلماء الذين درسوا الفقه وكان قد اتصل بنبغاء العلماء فى ذلك العصر كأبى يوسف محمد بن الحسن بن زياد وزفر وهذيل بن قيس ولعله كان منارة الفقه الاسلامى التى أضاءت بعد الرسول الكريم عليه الصلاة السلام وصحابته والتابعين أربعة عشر قرنا وذخرت بعد ذلك المكتبة الاسلامية بملايين الكتب فى الفقه منها مئات الآلاف وضعت باللغات الأجنبية لعلماء من الأجانب.

ومع ذلك فانه لما بنى الخليفة المامون مدينة بغداد استقدمه اليها وطلب منه ولاية القضاء فأبى وقال لا اريد أن احازف فأكون احد اثنين من اهل النار فقد سمعت رسول الله قد قال ((قاضى فى الجنة وقاضيان فى النار)) .

فضرب وسجن وأهين .

وكان المنصور قد ضرب الامام مالك لما أفتى اهل المدينة انهم بايعوا المنصور مكرهين .

وهناك آخرون كثيرون امتنعوا عن ولاية القضاء .

شجاعة القضاء ....



ان الفضل بن الربيع وزير الخليفة الرشيد شهد عند ابى يوسف فرد شهادته فعاتبه الخليفة وقال : لم رددت شهادته ؟ قال لانى سمعته يوما يقول للخليفة انا عبدك . فان كان صادقا فلا شهادة للعبد ، وان كان كاذبا فكذلك ، لانه اذا لم يبال فى مجلسك بالكذب فلا يبالى فى مجلسى فعذره الخليفة وانما رده القاضى ابو يوسف لما فى كلام هذا الوزير من اذلال نفسه وطاعته لأهل الدنيا .

فى كتاب قضاة مصر للكندى ، ان الوليد بن رفاعة ارسل الى توبة بن نمر ليوليه القضاء ودخلت عليه امراته عفيرة الأشجعية ، وكانت امراة برزة فقالت له عفيرة اما والله يا توبة ما حباك ابن رفاعة بهذه الولاية ، ولو أنه وجد فى قيس كلها من يسد مسدك لهذا الأمر لأمره عليك وقدمه وأخرك . فلما ولى القضاء دعا امراته فقال يا ام محمد اى صاحب كنت لك ؟ قالت خير صاحب واكرمه . قال : فاسمعى لا تعرضن لى فى شىء من القضاء ولا تذكرى بخصم ، ولا تسالنى عن حكومة ، فان قلت شيئا من هذا فانت طالق . فاما ان تقيمى مكرمة واما أن تذهبى ذميمة ، فانتقلت عنه فلم تكن تأتيه الا فى الشهر والشهرين . وفى رواية انه قال لها كيف علمت محبتى

لك ؟ قالت جزاك الله من عشير خيرا . قال قد علمت ما قد بلينا من أمر الناس كلهم ، فأنت طالق ، فصاحت ، فقال ان كلمتنى فى خصم او ذكرتنى به . قال فان كانت لترى دواته قد احتاجت الى الماء فلا تامرى ان خوفا من ان يدخل عليه فى يمينه شىء .

ان عاقبة بن يزيد القاضى كان يلى القضاة ببغداد للمهدى فجاءه فى بعض الأيام وقت الظهر للمهدى وهو خال فاستاذن عليه . فلما دخل استاذنه فيمن يسلم اليه القمطر الذى فيه قضايا مجلس الحكم واستعفاه من القضاء وطلب منه ان يقيله من ولايته . فظن المهدى أن بعض الأولياء قد عارضه فى حكمه فقال له ذلك انه ان كان عارضك احد لننكرن عليه ، فقال القاضى : لم يكن شىء من ذلك ، قال : فما سبب استعفائك من القضاء ؟ قال : يا أمير المؤمنين كنا نحتاج الى تامل وتثبت . فرددت الخصوم رجاء أن يصطلحوا وان يظهر الفضل بينهما ، فسمع احدهما انى احب الرطب . فعمد فى وقتنا هذا وهو اول اوقات الرطب فجمع رطبا لا يتهيأ فى وقتنا جمع مثله لأمير المؤمنين . وما رايت أحسن منه ، ورشا بوابى بدراهم على ان يدخل الطبق على ولا يبالى أن يرد عليه ، فلما ادخله على انكرت ذلك وطردت بوابى وامرت برد الطبق فرد عليه ، فلما كان اليوم تقدم الخصمان الى فما تساويا فى عينى ولا قلبى ، فهذا يا أمير المؤمنين ولم اقبل فكيف يكون حالى لو قبلت ؟ ولا آمن أن تقع على حيلة فى دينى فأهلك وقد فسد الناس . فاقلنى يا أمير المؤمنين أقالك الله واعفنى عفا الله عنك . فاقاله .

قناعتهم واستهانتهم بالدنيا

مرض عبد الله بن مسعود فعاده عثمان بن عفان فقال : ما تشتكى ؟

قال ذنوبى . قال فما تشتهى ؟ قال رحمة ربى . قال الا آمر لك

بطبيب ؟ قال الطبيب أمرضنى . قال الا آمر لك بعطاء ؟ قال لا حاجة لى فيه . قال يكون لبناتك . قال اتخشى على بناتى الفقر ؟ انى امرت بناتى أن يقرآن كل ليلة سورة الواقعة ، انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من قرأ الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة ابدا . وتوفى عبد الله وأوصى الى الزبير بن العوام فدفع عثمان عطاء سنتين بعده كان قد تركه عبد الله استغناء عنه وارسله الى الزبير فدفعه الى ورثته .

ارسل سليمان بن حبيب والى فارس والأهواز الى الخليل بن احمد يستدعى حضوره وكان له راتب عليه فكتب الخليل اليه :

ابلغ سليمان انى عنه فى سعة
وفى غنى غير انى لست ذا مال
شحا بنفسى انى لا ارى احدا
يموت عزلا ولا يبقى على حال
الرزق عن قدر لا الضعف ينقصه
ولا يزيدك فيه حول محتال
والفقر فى النفس لا فى المال تعرفه
ومثل ذاك الغنى ، فى النفس لا المال

فقطع عنه سليمان الراتب فقال الخليل :

ان الذى شق فمى ضامن — لى الرزق حتى يتوفانى
حرمتنى مالا قليلا فما — زاد فى مالك حرمانى

فبلغت سليمان فاقامته واقعدته واعتذر الى الخليل واضعف راتبه .

وقال تلميذه النضر بن شبل : اقام الخليل فى خص من اخصاص البصرة لا يقدر على فلسين واصحابه يكسبون بعلمه الأموال . ولقد سمعته يوما يقول : انى لأغلق على بابى فما يجاوزنى همى .

وظيفتهم ومحافظتهم عليها بصدق

فى كتاب الشقائق النعمانية لعلماء الدولة العثمانية ، أن السلطان سليم خان أمر بقتل مائة وخمسين رجلا من حفاظ الخزائن . فتنبه لذلك المولى علاء الدين على بن أحمد بن محمد الجمالى المفتى — فذهب الى الديوان العالى ولم يكن من عادتهم ان يذهب المفتى الى الديوان العالى الا لحادث عظيم . فتحير اهل الديوان ولما دخل الديوان سلم على الوزراء فاستقبلوه واجلسوه فى صدر المجلس ، ثم قالوا له اى شىء دعا المولى الى المجىء الى الديوان العالى ؟

قال اريد ان ادخل على السلطان ولى معه كلام . فعرضوه على السلطان سليم خان فاذن له وحده فدخل وسلم عليه وجلس ثم قال : وظيفة أرباب الفتوى ان يحافظوا على آخرة السلطان ، وقد سمعت انك امرت بقتل مائة وخمسين رجلا لا يجوز قتلهم شرعا فعليك بالعفو عنهم . فغضب السلطان وكان صاحب حدة وقال انك تتعرض لأمر السلطنة وليس ذلك من وظيفتك قال لا ، بل اتعرض لأمر آخرتك وانه من وظيفتى فان عفوت فلك النجاة والا فعليك عقاب عظيم . فانكسرت عند ذلك ثورة غضبه وعفا عن الكل . ثم تحدث معه ساعة ولما اراد ان يقوم قال له : تكلمت فى امر آخرتك وبقى لى كلام متعلق بالمروءة فقال السلطان وما هو ؟ قال أن هؤلاء من عبيد السلطان ، فهل يليق بعرض السلطنة أن يتكففوا الناس ؟ قال لا قال فقررهم فى مناصبهم فقبله السلطان وقال : الا انى اعزرهم لتقصيرهم فى خدمتهم قال المولى هذا جائز لأن التعزير مفوض الى رأى السلطان ثم سلم عليه وانصرف وهو مشكور .

ولهذا المولى حكاية أخرى مع السلطان سليم نفسه انقذ فيها اربعمائة رجل من القتل بايثاره الحق وتهالكه على نصرته اداء لواجب وظيفته فى محافظته على آخرة السلطان ابتغاء وجه الله ومصلحة الناس لا لعرض من الدنيا .

قال عمر بن حبيب القاضى : حضرت مجلس الرشيد يوما فجرت مسأله فتنازعها الخصوم وعلت الأصوات فيها ، فاحتج بعضهم بحديث يرويه أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم . فدفع بعضهم الحديث وزادت المدافعة والخصام حتى قال قائلون منهم أبو هريرة متهم فيما يرويه وصرحوا بتكذيبه ، ورايت الرشيد قد نحا نحوهم ونصر قولهم . فقلت ان الحديث صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو هريرة صحيح النقل وصدوق فيما يرويه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر الى الرشيد نظرة مغضب وانصرفت الى منزلى فلم ألبث ان جاءنى غلام فقال : اجب امير المؤمنين اجابة مقتول وتحنط وتكفن فقلت اللهم انك تعلم انى دافعت عن صاحب نبيك واجللت نبيك ان يطعن على اصحابه فسلمنى منه . فادخلت على الرشيد وهو جالس على كرسى ، حاسر عن ذراعيه بيده السيف وبين يديه النطع فلما بصرنى قال : يا عمر بن حبيب ما تلقانى أحد من الدفع والرد لقولى بمثل ما تلقيتنى به والجرات على . فقلت يا امير المؤمنين ان الذى قلته ووافقت عليه وملت اليه وجادلت عنه ازراء على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى ما جاء به فانه اذا كان اصحابه ورواة حديثه كذابين ، فالشريعة باطلة والفرائض والأحكام فى الصلاة والصيام والنكاح والطلاق والحدود مردودة غير مقبولة . فالله الله يا امير المؤمنين أن تظن ذلك او تصغى اليه وانت اولى أن تغار لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الناس كلهم . فاذ سمع كلامى رجع الى نفسه ثم قال : احييتنى يا عمر بن حبيب أحياك الله ، أحييتنى أحياك الله . وامر له بعشرة الاف درهم .

وحدث الجاحظ : ان المعتصم غضب على رجل من اهل الجزيرة الفراتية . وحضر السيف والنطع وقال له المعتصم صنعت كيت وكيت . وامر بضرب عنقه . فقال له احمد بن ابى دؤاد الأيادى القاضى . يا امير المؤمنين سبق السيف العذل فتأن فى امره فانه

مظلوم . قال فسكن قليلا . قال ابن ابى دؤاد وغمرنى البول فلم اقدر على حبسه . وعلمت انى لو قمت قتل الرجل . فجعلت ثيابى تحتى وبلت فيها حتى خلصت الرجل . قال فلما قمت نظر المعتصم الى ثيابى رطبة فقال : يا أبا عبد الله كان تحتك ماء ؟ فقلت لا يا امير المؤمنين ، ولكنه كان كذا وكذا . فضحك المعتصم ودعا لى وقال احسنت بارك الله عليك وخلع عليه وامر له بمائة الف درهم . وابن ابى دؤاد هذا هو الذى يقول فيه الكلبى : ابن ابى دؤاد روح كله من قرنه الى قدمه .

وفى ج ٢ ص ٢٧ من كتاب حسن المحاضرة ، ان الملك الكامل شهد عند القاضى ابن عين الدولة وهو فى دستملكه فقال ابن عين الدولة : السلطان يامر ولا يشهد فأعاد عليه القول فلما زاد الأمر وفهم السلطان انه لا يقبل شهادته قال : انا أشهد تقبلنى ام لا ؟ فقال القاضى لا ، ما اقبلك وكيف اقبلك وعجيبة تطلع عليك بحنكها كل ليلة وتنزل ثانى يوم بكرة وهى تتمايل على أيدى الجوارى وابن الشيخ من عندك؟ ايحسن ما نزلت ! وكانت عجيبة هذه مغنية اولع بها الملك . فكانت تحضر اليه ليلا وتغنيه بالجنك على الدفاف فى مجلس يحضره ابن شيخ الشيوخ ، فقال له السلطان يا كيراج ، وهى كلمة شتم بالفارسية فقال القاضى ما فى الشرع يا كيراج ، اشهدوا على انى قد عزلت نفسى ، ونهض فقام ابن الشيخ الى الملك الكامل وقال المصلحة اعادته لئلا يقال لاى شىء عزل القاضى نفسه ؟ وتطير الاخبار الى بغداد ويشيع امر عجيبة ، ونهض الى القاضى وترضاه وعاد الى القضاء .

ولو اردنا ان نسترسل لما كفتنا الاف الكتب نسطرها عن العدل فى القضاء الاسلامى ويكفى ان نقول ان الاسلام هو رسالة العدل بعد ان تحكم الجور والظلم فى البشرية زمانا طويلا .

القضاء فى مصر فى القرن العشرين :

ولكننا نقفز حتى نأتى مصر وهى فى أواخر القرن التاسع عشر الى منتصف القرن العشرين يولية سنة ١٩٥٢ .

ونستحث الذاكرة فنقص من مواقف القضاء ما يأتى :

ما ان بزغ فجر القرن العشرين حتى كان القضاء المصرى قد بلغ الرشد بعد أقل من عشرين عاما ، فقد عين فى مناصبه نوعان من المتعلمين . من خريجى الأزهر ممن تولوا القضاء من قبل فى المجالس القضائية (**التى سميت المجالس الملغاة**) وممن اظهروا نبوغا وقوة فى العلم والحق . ومن أولى بولاية القضاء ممن درسوا الشريعة الاسلامية وفقهها الذى لا حدود له ولا شطوط لبحره .

وأعلى مثل لذلك الامام محمد عبده الذى عين مستشارا فى محكمة الاستئناف ولا يزال تعريفه ((لسبق الاصرار)) هو التعريف الوحيد الذى يعتنقه رجال الفقه وتجرى به أقلام القضاة (هى الفترة التى يخاطب فيها العقل الروية) .

وعن نفس العلو فى المثل سعد زغلول وله حكم منشور فى مجلة الشرائع سنة ١٨٩٨ يناقش فيه تقريرا مقدما من الطبيب الشرعى عن وقت وفاة المجنى عليه وهل حدثت قبيل القائه فى البئر أم باسفكسيا الغرق وفى كتاب الزميل الفاضل الراحل عبده حسن الزيات ((سعد زغلول من اقضيته)) امثلة رائعة .

قضية اللواء ١٩٠٨



كان الشيخ عبد العزيز جاويش — من المجاهدين الأبطال الابرار — وكان ميدان جهاده الصحافة . وكان يملك قلما من نار اذا هجم به احرق من يهاجمه واشعل لهبا فى صدور القارئين .

وكان يتولى تحرير جريدة اللواء وكان قد حدث فى السودان فى بلدة تسمى الكاملين ان قامت ثورة بزعامة شيخ يدعى عبد القادر فجردت الحكومة قوة من الجيش نكلت بالزعيم والثائرين وقتلت عددا كبيرا منهم ثم قدمت متهمين للمحاكمة فقضت المحكمة باعدام ١٢ شخصا ومعاقبة ثمانية بالأشغال الشاقة المؤبدة .

ومنعت الحكومة المصرية نشر النبأ — فلما علم اللواء بالحادثة نشر عنها كلمة بعنوان **(دنشواى أخرى فى السودان — ٧٠ مشنوقا)** فأقامت النيابة الدعوى العمومية على الشيخ عبد العزيز جاويش وقدمته للمحاكمة امام محكمة عابدين وترافع عنه الأساتذة احمد بك لطفى واسماعيل بك شيمى ومحمود بك فهمى حسين (وقد توفى أخيرا وقد عرفناه وقضينا معه سهرات فى النادى الأهلى امتعنا فيها بالحديث عن ذكريات تلك الأيام الكريمة) .

ترافع المحامون عن أول صحفى يتهم بتهمة خاصة بحرية النشر ، وكان لمرافعاتهم صدى فى البلاد . وقد قضى فيها بالبراءة .

وكان الشيخ **عبد العزيز شاويش** قد نشر مقالا فى ٢٩ يونية سنة ١٩٠٩ بعد صدور قانون المطبوعات فى أول عهد وزارة بطرس غالى باشا فى ذكرى تنفيذ الحكم بالاعدام فى ضحايا دنشواى وشهدائها قال فيه :

« سلام على اولئك الذين كانوا فى ديارهم آمنين مطمئنين ، فنزل بهم جيش الشؤم والعدوان ، فازعج نفوسهم ، واحرق حصادهم ، فلما هموا بصيانة ارزاقهم ، التى اعملوا فى سبيلها اجسامهم ودابتهم وارضهم . وقاموا عليها نحو حول يتعهدونها بالسقى والخفارة ، ويرقبونها فى البكرة والعشى ، قيل انهم مجرمون ، فسيقوا فى السلاسل والأغلال ، ثم صلبوا على مسمع ومرأى من زوجاتهم وأمهاتهم وبناتهم وعيالهم واصدقائهم وجيرانهم .

« سلام على تلك الأرواح البريئة التى انتزعها بطرس غالى رئيس المحكمة المخصوصة بقضائه ، من مكانها فى اجسامها ، كما تنتزع سلوك الحرير من خلال الشوك ، ثم قبضها بيده فقدمها قربانا الى ذلك الجبار الظالم ، الغاصب القاهر ، القائم فى بلادنا بنفاقنا وضيعة مقاصدنا ، المستبد بالأمر فينا ، بسبب تفرقنا وضعف عزائمنا المسيطر علينا بنفر منا ، يخشون الانجليز أكثر مما يخشون الله . ويرغبون فى المال والرقى ، ولو شقيت فى سبيل ذلك بلادهم واستبيحت حرماتهم .

« سلام على اولئك الذين وقف هلباوى بك فثار فيهم ثورة الجبارين ثم انثنى على رقابهم فقضمها ، وعلى اجسامهم فمزقها ، وعلى دمائهم فارسلها تجرى فى الأرض تلعن الظالمين وتتوعد الآثمين .

« نعم قام **هلباوى بك** قيامة المشعوذ ، وطلب من قضاة تلك المحكمة الظالمة بذلك القلب المضطرب . واللسان المتلجلج .. ان يحشر اهل دنشواى ، فيقدموا قرابين الى هيكل الاحتلال . الذى هو معبد الخائنين وقرة اعين السارقين فما لبث رئيس المحكمة

وزميله قاضى دنشواى احمد فتحى باشا زغلول . انما استهوتهما الآمال واستغوتهما تلك المناصب . واسترهبتهما عظمة الاحتلال . فانطقتهما بذلك الحكم الجائر لرغب فى الألقاب والمناصب وعدول النفس الى الشعور بالواجب .

« وهل كان مقام القضاة فى تلك الكارثة ، أشق على النفس من مقام من تقدموا للدفاع عن أولئك الأبرياء مختارين جازمين ببراءتهم من التهم الباطلة والدعاوى المموهة التى اجترأ هلباوى بك على الجهر بها وتنسيقها . وقدرت يده على تسطيرها وتنميقها ، وقوى لسانه على التحرك بها ، وهو يعلم أن حظها من الصحة ، كحظه من الوطنية ، وقربها من الحق ، كقربه فى موقفه من العواطف البشرية؟

« أين كان لطفى السيد بك وبيانه ؛ أين كانت حجته وبرهانه ؟ اين كان قلمه ولسانه ؟ أين كانت غيرته ووجدانه ؟ أين كانت فلسفته وايمانه ؟ ماذا عقد لسانه عن القول ، ولم يكن موظفا فيعزل ، ولا معدما فيهلك ، ولا رقيقا فيباع ، ولا جبانا فيراع ؟

« ثم بماذا نذكر اسم زميله **محمد يوسف بك** بعد أن أعرب فى باريس عن مبلغ علمه بالحقوق الانسانية ، ومنتهى تشدده فى الفرائض الوطنية ، وقد اجاب بعض سائليه عن تلك الجناية الكبرى التى ارتكبها باهماله فى الدفاع ، اذ قال : « ماذا جرى ؟ فئة من خشاش الفلاحين اعتدوا على سادة البلد واصحابه ، فعوقبوا بما استحقوا ! ؟»

« هل قال كلمته هذه لتروى عنه للانجليز ، فيكرموا وفادته اذا وفد عليهم ، ويجيبوا مطالبه اذا هو ادلى بها اليهم ، ويأخذوا بيده اذا رغب اليهم فى بعض الوظائف الادارية والاستشارية ؟ ان يكون انما رمى الى تلك الغاية فهل جهل أن الانجليز يكرهون الخائنين ويحبون خيانتهم ، ولا يقربون المفسدين الا بمقدار ما ينتفعون منهم؟

تضحك سنهم للمنافق وقلوبهم تلعنه ، ويرحبون بالمارق وصدورهم تضيق عنه ؟ اذن يكون مثله فى هذا مثل هلباوى بك فى تلك الكارثة، اذ اقام صروح آماله على الفضاء ، وتوقع من عناية الانجليز مثلما أقر عيون رئيس الحكومة وقاضيها ، وقد فاته ان للانجليز غايات يعرفون كيف يلتمسونها ، ومقاصد لا يجهلون اسبابها ووسطاءها .

« اوعز اللورد كرومر بما أوعزبه ، فعنت له الوجوه ونسيت الذمم واعوزت القلوب الرحمة ، فضيعت الحقوق ، وازهقت الأرواح ، ايمت النساء ، وتيتمت الأطفال فماذا جنى أولئك الذين خالفوا الله بطاعته وهزموا الحق بنصرته .. اولئك الذين طمسوا معالم العدل ، واقاموا منار الجور ، لقد اصبحوا يشق وجودهم على الأرض ورؤيتهم على الابصار وصوتهم على المسامع ، وذكرهم على الالسن ، وذكراهم على الصدور ؟ وهل هذا الاقتصاص عجله الله لهم فى الدنيا ، ليرى الناس عاقبة العدوان، عداوة الأوطان فى سبيل الشيطان ؟

« واما أولئك الذين بكتهم السماء والأرض ورثى لظلمهم العالم ، وانخلع لمصابهم قلب الانسان فى كل مكان ، فهم شهداء عند ربهم يرزقون، وشهود ستنطق ايديهم وارجلهم ورقابهم ودماؤهم بماظلمهم به قضاة المحكمة المخصوصة، وبما قصر فى الدفاع عن حياتهم المحامون يوم يؤتى بهؤلاء فلا ينطقون ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون ، « وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون » .

« الا فلتذكر الأمة الثامن والعشرين من شهر يونيو ، ولتذكر أن للاحتلال اعوانا من بينهم يجب محاربتهم بالبغض ، ومعاملتهم بالحذر وسوء الظن . أولئك الذين روى فى امثالهم على امير المؤمنين عن النبى عليه الصلاة والسلام ، الحديث الشريف : انى لا أخاف على أمتى مؤمنا ولا مشركا . اما المؤمن فيمنعه الله بايمانه واما المشرك

فيمنعه الله بشركه . ولكنى اخاف كل منافق الجنان ، ملتوى اللسان يقول ما تعرفون ويفعل ما تنكرون » .

كان الشيخ فى دفاعه عن المظلومين ، جبارا لا يرحم ، سيفا بتارا، وسوط عذاب يدمى اجسام الظالمين حتى يئنوا من الالم . لقد رأيت عنف المقال وشدته ، وما فيه من حملة عادلة على رئيس المحكمة المخصوصة وقاضيها والمدعى العام فيها الهلباوى بك . وعلى المحامين الذين قصروا فى اداء واجبهم .

لقد واتت الفرصة الحكومة لتنتقم من هذا الرجل الجرىء ، وهو الذى اتاحها لها بمقاله الشديد هذا . اذ لمحت فيه ثغرة نفذت منها اليه ، ففى يوم ٨ يوليو قدم بطرس غالى باشا نائب الخديوى ورئيس النظار بلاغا الى النيابة للتحقيق مع الشيخ فيما كتب ، وحقق معه فى اليوم نفسه ، وعين يوم ١٧ من الشهر لمحاكمته امام محكمة عابدين الجزئية بتهمة اهانة كل من بطرس غالى باشا وفتحى زغلول باشا ، والقذف فى لطفى السيد بك ومحمد يوسف بك المحاميين . وحل يوم المحاكمة ، ودافع عنه احمد لطفى بك واسماعيل شيمى بك والأستاذ محمود بسيونى ـ رئيس مجلس الشيوخ الوفدى واحد وزراء واعضاء الوفد المصرى فيما بعد ـ واجل النطق بالحكم الى يوم ٢٥ اغسطس وفيه صدر الحكم عليه بالحبس ثلاثة اشهر حبسا بسيطا .

قضيتنا وطنيتى :

ونشرت جريدة المؤيد عامدة معقبة على ديوان شعر كان اصدره الشيخ على الغاياتى بعنوان وطنيتى فقالت :

رب ان البلا أرهقها الظـ	ـلم وحاقت بأهلها البأساء
رب ان الصدور أحرجها الوجـ	ـد واودت بحلمها الأرزاء
فتدارك بلطفك النيـل حتى	لا تجارى حياة مصر دماء

وقال موجها الحديث الى سمو الأمير :

اعباس / هذا آخر العهد بيننا ... فلا تخش منا بعد ذلك عتابا
ايرضيك فينا أن نكون أذلة ... ننال اذا رمنا الحياة ، عقابا
ونياس من آمالنا فيك كلما ... قضيت علينا ان نكون غضابا
وأرضيت اعداء البلاد وأهلها ... وأصليتنا بعد « الوفاق » عذابا

وقال عن الوزارة :

الا أمطر الله الوزارة نقمة ... ولا بلغت مما تروم مراما
تحاول أن تقضى علينا باثمها ... ولكن ستلقى دون ذلك اثاما
وزارة خداع اقامته بيننا ... يد الحاكمين الآثمين مقاما
وبين يديه عصبة بطرسية ... تصوب نحو المصلحين سهاما
حتى ما جنى فى دنشواى وغيرها ... ولم يكفه حتى استحل حراما
فقيد أقلام الصحافة علها ... اذا أبصرت سوءاته تتحامى

لم يكتف الشيخ **على يوسف** باختيار هذه الأبيات ، بل اختار ابياتا من قصيدة كان قد وجهها القاياتى الى « دنجوا » الهندى الذى قتل السير كيرزون حاكم الهند فى صيف ذلك العام ، وابياتا من قصيدة اخري قالها صاحب الديوان فى مصرع بطرس غالى ، ولم يقل الشيخ على يوسف تعقيبا على نشره الأبيات الا انه يوجه اليها نظر الحكومة والى الذين حرضاه وشجعاه ، فكتبا له مقدمة ديوانه .

وسرعان ما قررت الحكومة مصادرته ، واوعزت الى النيابة برفع الدعوى على مؤلفه وعلى صاحبى كلمتى التقديم . اما صاحب الديوان فقد استطاع الهرب الى الاستانة وأما فريد فأرجئت محاكمته الى ما بعد عودته من الخارج .. لم يبق الا الشيخ جاويش فحوكم وحكم عليه بالسجن ثلاثة اشهر مع النفاذ فى ١٧ اغسطس سنة ١٩١٠ وعاد

فريد ، فحوكم هو الآخر ، وحكم عليه بسجنه سته اشهر مع النفاذ فى ١٣ يناير سنة ١٩١١ .

قضية قتل بطرس غالى باشا :

اتهمت النيابة العمومية ابراهيم الوردانى بانه قتل مع سبق الاصرار والترصد رئيس الوزراء .. واتهمت معه ثمانية من الطلاب والمحامين ـ وكان منهم المرحوم الدكتور شفيق منصور المحامى الذى اعدم فى حادث السردار بعد ذلك بأربعة عشر عاما تقريبا ولكن قاضى الاحالة (المرحوم متولى بك غنيم) لم ترتجف أوصاله لما أصاب البلاد من هزة وفرقة بين المسلمين والاقباط ، ولا أخذ بباله ان الضحية هو رئيس الوزراء وأن الانجليز والخديوى يطلبون محاكمة قاسية لا تقل عن محاكمة دنشواى ولكنه قرر بأن لا وجه لاقامة الدعوى على الثمانية واحالة الوردانى فقط الى محكمة الجنايات استنادا الى أن قانون العقوبات لم يكن قد نص على « الاتفاق الجنائى » قضية الدستور :

اصطف الطلبة فى يوم ٢٤ نوفمبر سنة ١٩١٠ على أفريز محطة طنطا للاحتفال بمرور الخديو عباس ، وقد ساقهم الحاكمون كالعادة ، ولكن الخديو ورجال حكومته فوجئوا بهتافات الطلبة : « تحيى مصر .. ليحيى الدستور » وانزعج مدير الغربية (محمد محب باشا) فطرد الطلبة وقبض على بعضهم .

واتهمت الادارة الاستاذين مصطفى بك الشورجى ومحمد نبيه سلام بك وكانا محاميين ناشئين بتحريض الطلبة وعرضا على المحكمة وحكمت ببراءتهما .

ثورة ١٩١٩ :

وقامت ثورة ١٩١٩ وانفرد الانجليز بمحاكمة المصريين الثائرين امام محاكم عسكرية .

ولم يجرؤوا ان يقدموا متهما مصريا واحدا الى محكمة اهلية . فقد كان على راس كل محكمة اهلية اسد فى صولته القضائية وفى شجاعته ، وفى زئيره بحب بلاده .

كان رجال القضاء جميعا ـ فيما عدا المستشارين ـ غير قابلين للعزل .

وكان المستشارون يواجهون الاغراء الشديد فقد كان يختار منهم الوزراء ويمنحون رتبة الباشوية ومن لم يتقرب الى قصر السلطان او قصر الدوبارة (البريطانى) لم ينل حظا من هذه النعم .

ولقد كان أغلب المستشارين يترفعون عن مجرد زياره وزارة الحقانية .

سر تقدم القضاء المصرى :

ليس بعجيب ان يكون القضاء المصرى (**الاهلى**) قد بلغ هذه الذروة فى زمن قصير ، وفى تطور سريع رغم المعوقات . فقد بدات المحاكم الأهلية فى سنة ١٨٧٣ وجمع لها القضاة جمعا من ترك الى ديلم الى فرنسيين وانجليز ويونانيين وايطاليين .

ولكن فى وسطهم كان قد عين بعض المصريين المتعلمين المثقفين فاستطاعوا ان ينفذوا من سجف الجهل الذى كان يملى بعض الاحكام فيقول القاضى :

« من حيث انه فى يوم عشرين محرم سنة ١٣٠١ حضر لضبطية قسم الموسكى امبابى محمد المخبر ومعه حرمة تدعى حفيظة بنت أحمد افندى عبد الباقى وشخص آخر ادعى ان اسمه محمد عفيفى وقال انه نظر الحرمة حفيظة حاملة طفلا رضعة والمدعو محمد عفيفى مارا خلفها ثم سرق فردة خلخال من أرجل الطفلة :

وحيث أنه لدى التحقيق بالضبطية المذكورة حصل الاعتراف من ذلك السارق بما ذكر .... الخ) .

وقد ذكر هؤلاء الاستاذ **عزيز خانكى** فى مجلة اليوبيل الذهبى لانشاء المحاكم الأهلية وهم :

شفيق منصور يكن واسماعيل صبرى (الشاعر العظيم) والشيخ محمد عبده (الامام الامير محمد عبده) وأمين فكرى (باشا صاحب العوائد الفكرية) وعلى فخرى (وكان من أعظم المستشارين الذين شهد لهم الاستاذ الكبير الهلباوى بك مع حسين عاصم باشا) وسعد زغلول (الزعيم الخالد سعد زغلول) وفتحى زغلول (باشا وأول من ترجم شرح القانون المدنى وسر تقدم الانجليز وغيرهما من الكتب الممتازة) ومحمد صالح (باشا) وكان كما يحكى الذين عاصروه شديد الشغف بالادب العربى وحفنى ناصف (الشاعر الكاتب المعروف) ومجدى (مجدى باشا) وحشمت (باشا وزير المعارف فيما بعد والحقانية) وأحمد عفيفى (باشا) وقاسم أمين الذى يقول عنه الهلباوى ما يأتى :

(لقد كنت اترافع امام محكمة بنها فى قضية ضد الحكومة التى كان يمثلها هو (**قاسم أمين**) وكنت اتوقع وقاسم خصمى فى هذه القضية ان يشعر احدنا بشىء من الوحشة لاختلاف البيئة التى تخرج كل منا فيها (الازهر ـ والمدارس الاوربية) ولكنى اذ سمعته يترافع ويدلى بحجته لمصلحة الحكومة ضد موكلى شعرت بقلبى يدق اعجابا بحسن اسلوب هذا الخصم) .

ثم يقول :

(قال لى طلعت باشا ان **قاسم امين** قد الف منذ صغره ان يوزع جهوده بين دروسه وبين قراءة كتب الادب الفرنسى والعربى وكتب التاريخ وبقى ذلك شأنه طول حياته وعندما كان فى القضاء كان

قاضيا ومؤلفا بالعربية والفرنسية ومحررا للمراة ودائب البحث فى الشريعة الاسلامية ومنشئا للجامعة ومؤسسا للجمعية الخيرية الاسلامية) .

* * *

استطاع هؤلاء الفطاحل ان يخرقوا خرقا فى هذه المحاكم ، وأن يحدثوا حدثا وسرعان ما وصلوا بين حاضر القضاء وبين قديمه فى عهد صدر الاسلام وعصور ائمة الفقهاء الاجلاء فارتقى القضاء وسمت لغته ، وتجسمت عدالته وكيف لا وهو سليل العلم الدينى ـ الاسلام والقرآن وسنة رسول الله .

من ذلك الحين ظل القضاء يطلب الرقى ويسعى للسمو وذلك عن طريق العلم المستحدث فى مدرسة الحقوق فى الثلث الاول من القرن التاسع عشر (١٨٣٦) حين انشئت مدرسة الألسن (وكان يدرس فيها القانون) ثم مدرسة الحقوق (١٨٦٨) وكان أول ناظر لها هو (فيدال باشا) الذى كان مهندسا ومحاميا فرنسيا واستقدمه الخديوى اسماعيل لكى ينشىء مدرسة المهندسخانة فانشأها ووضع قوانين مدنية وجنائية فكلفه الخديو اسماعيل بانشاء مدرسة الحقوق التى مضى عليها الآن ١١٠ سنة !!

كان لابد ان يكون لخريجى هذه المدرسة من الثلث الاخير للقرن التاسع عشر اثر اى اثر فى تقدم القضاء .

وكان لتقدم المحاماة بخريجى هذه المدرسة مع المتخرجين فى الأزهر اثره ايضا فى ارتقاء القضاء . وتشارك الفريقان فى الارتفاع بلغة التقاضى والقضاء والبحث العلمى ، حتى أصبح القضاء على اعلى مستوى عالمى فانه من سلالة الشريعة الدينية وسدنته هم ابناء مدرسة من أقدم مدارس الحقوق فى العالم . وممن كانوا يختارون من ابناء المصريين الاشراف ـ ولا اقول الاثرياء ـ فلو اننى عددت رجال القضاء والفقه بالآلاف لكان ابناء الاغنياء منهم قلة مسحوقة

وابناء الطبقة المتوسطة ـ وهى عصب المجتمع فى كل زمان هم الأغلبية الساحقة .

* * *

سنة ١٩١٩ :

انه لماض مشرف مجيد ، يشرق بانوار المجد والفخار وصل به القضاء الى تاريخ النهضة الحديثة (١٩١٩) .

وواجه القضاء المصرى تحديات السلطان والانجليز والزعماء المستبدين الذين ناهضوا الثورة .

وقبل القضاء هذا التحدى لا عن تعصب حزبى ، ولا تأثر بالجماهير ولكن تطبيقا للعدل دون خوف من بطش أو من لومة لائم .

ونورد هنا أمثلة لذلك شهدنا اكثرها

محاكمة العمد :

كان الموظفون فى سنة ١٩١٩ امتنعوا عن العمل وأضربوا ، وانذرهم الحاكم العسكرى بأن من لا يعود منهم الى عمله فى اليوم التالى سيكون مفصولا .

واستمر الاضراب ولم يحاكموا . ولكن قدم بعض العمد للمحاكمة لتقديمهم الاستقالات وامتناعهم عن اداء اعمالهم .

وكان لقضاياهم دوى كبير ، وحكم فى أغلب القضايا بالبراءة واعتمد القضاء المصرى فى احكام البراءة على ان العمدة ليس موظفا ولكنه يعاون الحكومة متطوعا ومتبرعا .. وذلك بالرغم من اندفاع الانجليز والحكومات التى كانت تناهض سعدا والوفد الى تهديد رجال القضاء .

وفى عهد سعد زغلول :

كانت صحف الاحرار الدستوريين والحزب الوطنى وجريدة الكشكول تقذع فى سب رئيس الوزراء — سعد زغلول — زعيم الأمة — وزعيم الثورة .

وكان كل ما يفعله سعد العظيم هو ان يبعث بشكواه — كأى مواطن الى النيابة العمومية لتحقيقها وكانت تنظر القضايا ويحكم فيها بالبراءة وقليلا ما حكم بغرامة لا تتجاوز الخمسين جنيها .

قضية ماهر والنقراشى :

واتهم **أحمد ماهر** وزير المعارف ومحمود النقراشى وكيل وزارة الداخلية وحسن الشيشينى الأستاذ فى مدرسة التجارة العليا — والحقوق — والحاج أحمد جاد الله ومحمد فهمى على بأنهم مع الذين اعدموا فى قضية السردار قد قاموا بجميع الاغتيالات من سنة ١٩١٩ الى سنة ١٩٢٣ .

وكانت **بريطانيا العظمى** تتربص للمحاكمة وكانت محكمة الجنايات التى تنظر القضية مكونة من مستر كرشو رئيسا وكامل بك ابراهيم وعلى بك عزت مستشارين . واصر المستشاران المصريان على وعلى بك عزت المستشارين اعضاء . وأصر كرشو سبعة أيام فى المداولات على اعدام الجميع وأصر المستشاران المصريان على البراءة فيما عدا محمد فهمى على . حتى بلغ به الجنون أن أخرج مسدسا ضخما فى غرفة المداولة فسأله كامل ابراهيم بك :

((أهذا المسدس من اسلحة الجيش البريطانى لتهديدنا ؟))

فجفل كرشو واجاب بعد ان ادخله فى جيبه :

(لا — اننى احمله للدفاع عن نفسى)

وحكم بالبراءة — واعلن فى نفس اليوم مستر كرشو انه لم يكن موافقا على الحكم وافشى سر المداولة واستقال من القضاء .

قضية النحاس :

ودبرت **للنحاس باشا قضية هو والاستاذ ويصا واصف رئيس مجلس النواب** وجعفر فخرى بأنهم اتفقوا والاول رئيس مجلس النواب فى قضية **الامير سيف الدين** ورفع الحجر عنه وكان قد اصبح رئيسا للوفد واريد بهذه القضية تلويث سمعته واستعملت وثائق مزورة من صنع الملك والوزارة القائمة فى ذلك الوقت وكانا يعملان على تلويث النحاس باشا بأى ثمن وبأى طريق .

وكذلك كان الانجليز يعاونونهم ونظرت القضية أمام مجلس تأديب المحامين وكانت اغلبيته وقتئذ من المستشارين وهم **حسين درويش باشا وعبد الحكيم عسكر بك ومحمود سامى بك ومحمد بهى الدين بركات بك وعبد الخالق عطية بك (المحامى) .**

وقد مثل **مصطفى النحاس باشا** رئيس الوفد ورئيس الوزارة السابق امام المجلس والاستاذ **ويصا واصف بك رئيس مجلس النواب سابقا والاستاذ جعفر فخرى .**

وقد حكم ببراءتهم رغم تجمع كل القوى ضدهم .

قضايا هامة اخرى فى عصر اسماعيل صدقى :

قضية قنبلة طما وفيها برىء عدد من المتهمين

وقضايا صحفية عديدة وكان يفرج عن المتهمين من الصحفيين بكفالة ثلاثة جنيهات ! وقضية نزاهة الحكم .

أيام الاحكام العسكرية :

وفى عهد الاحكام العسكرية بعد قيام الحرب العالمية الثانية كانت تعرض القضايا الخطيرة فى عهد **النحاس باشا وعهد النقراشى وعهد ابراهيم عبد الهادى على محاكم الجنايات :**

وليعلم من يريد أن يعلم أن جميع القضايا التى نظرت حكم فيها القضاء دون رعاية لجانب الحكومة او جانب حزب .

فيما عدا قضايا القتل التى قضى فيها :

١ ـ باعدام قاتل أحمد ماهر وحده .

٢ ـ اعدام قاتل النقراشى وحده وباحكام أخرى على بعض المتهمين .

٣ ـ الاشغال الشاقة لقاتل المستشار أحمد الخازندار

فان جميع احكام قضايا القنابل التى قتل من اجلها المستشار احمد الخازندار لم تتجاوز عشر سنوات .

* * *

تألق القضاء ونزاهته ونظافته

ظل القضاء رغم التغيرات السياسية والحزبية وتفشى روح النفعية يتسنم اعلى ذروه من المجد والاستقلال وحرية الحكم كما عناه تشرشل حين قال فى خطبته فى روما فى اواخر الحرب العالمية الثانية :

« لا تشعر المحكمة بضغط عليها من الحزب الحاكم او من الجماهير » .

وكانت البلاد قد هبت عليها اعاصير وشملتها عواصف خلقية وسياسية وتفشت المادية ، والاباحية .

ولكن القضاء ظل سليما طاهرا مطهرا الى حد ان حضرت مناقشة بين وزير العدل المرحوم أحمد مرسى بدر وبين مدير التفتيش المرحوم محمد أحمد غنيم لأن غنيم كان يأخذ على قاض انه كان يركب سيارة محام فى العودة من احدى المحاكم الى القاهرة !

وصرخت أنا وكنت رئيسا للجنة التشريعية بمجلس النواب :

« وهل المحامون أنجاس يا غنيم بك ؟ أنسيت ان وزير العدل الذى تكلمه كان محاميا وسيصبح بعد حين محاميا ؟ » ولولا تدخلى لفصل القاضى لأنه ركب سيارة مع محام وهما صديقان .

وقد نحتمل القول بأن ميدان السياسة أو الاقتصاد أو دور الحكومة كانت تعانى فى أوائل النصف الثانى من القرن العشرين انحرافات وعيوبا وكانت الصحف لا ترحمها وان كانت كلها قد بدت الآن ضئيلة الحجم بالقياس .

ولكن القرن العشرين انتصف والقضاء فى أوج عزته واعتزازه .

هكذا كان القضاء فى الاسلام مصدر التشريع فى مصر ، وهكذا كان القضاء من القرن التاسع عشر الى نصف القرن العشرين .

وان الذى عاش هذه الفترة الاخيرة محزونا ممزق القلب ليسعده ان امتد به العمر حتى رأى القضاء المصرى وهو يهاجم كل ظلم ، ويسجل التعذيب ويستنكر الخروج على القانون ، ويطالب بمعاقبة الذين اساءوا الى القضاء .

مرحى ! لقد انتصر العدل

نعم لتكن هذه العبارة « لقد انتصر العدل » كفاء كلمة شاكسبير فى يوليوس قيصر حين صرخ بروتوس : « لقد مات الاستعباد » .

ونختتم كلمتنا ـ التى ستكون كما وعدنا امتدادا عن هذه الحاكمات ـ بشعار نادى به المرحوم احمد ماهر : « الوطنية عدل وكرامة » .

أول لقـاء
مع الدجوى



قضية العقيد عبد الرحمن مخيون

لبيت الدعوة التى نادانى بها عبد الرحمن ، متشفعا بالرسول الكريم عليه الصلاة والسلام وما كان فى حاجة الى الشفيع وان كنا جميعا وفى كل وقت احوج ما نكون الى شفاعة الرسول لأننى ما رددت انسانا واحدا جاء يطلب عـونى المتواضـع للدفاع عنه - وقابلنى والده وعلمت منه ان امين مخيون أخاه متهم أيضا وكان والده كالعهد بآل مخيون كريما لم نختلف لحظة منذ المقابلة

وطلبت تصريحا للمقابلة ومن العجب اننى أجبت لما طلبت

ووقفت أمام مبنى السجن الحربى

ولأول مرة رأيت مصر ذبيحة فى هذا المبنى .. انه بقية من ظلم بريطانيا ، وأحسب انه عز على جدرانه أن يتولى ظلم الانجليز فاتسعت مرحبة بظلم المصريين لاخوانهم فى الوطن من المصريين .

ولقد لقيت دماء العدالة مهراقة على عتباته وفوق جدرانه وفى كل ملمس يد وموطىء قدم فيه ومن عجب ان رأيت الدماء النازفة على الأرض ذات ظلال فى السماء تجثم فوق هذا السجن والعهد ان الظل يكون على الارض ، ويمتد من جسم عالى . ولكن ظلال الدماء ليست كأى ظلال انها ترتفع من فوق القتلة الى السماء فى طريقها الى الله .

كان المبنى صامتا ولكننى سمعت هديرا من استغاثات المعذبين، وأعاصير من أنات الصابرين فلقد كان بعض الذين انزلوا هذا المنزل اللعين طالما قد حكوا لى وقصوا على ما وقع لهم فبقى الصـوت فى اذنى كلما تحركت الذكرى .

وها هو السجن الحربى مصدر الهدير والاعاصير أمامى ، وها هى الأصوات فى أذنى ، وها هى تطوف بسمعى ثم انقصاها واراها صاعدة الى العادل الجبار المنتقم ، هاأنذا أراها قد وصـلت الى سدرة المنتهى وليس بينها وبين الله حجاب .. صدقت يا سـيدى يا محمد يا رسول الله عليك أزكى الصلوات وأطيب التسليمات حين قلت **(ان دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب)** .

وجاءنى الاذن وخطوت بقـدمى نحو قبر الحرية ، ومثـوى الشـهداء . وكأننى أسير الى جبل أحد ، حيث قبر سـيدنا حمزة اول الشهداء فى أحد او الى كربلاء مقامة على كرم الله وجهه ، او مزار الامام الحسين ..

وقادنى ضابط بأدب ... الى غرفة مـدير السجن ، وتلقانى حمزة البسيونى وهو يحيينى وينحنى كأنه يريد تقبيل يدى وكانت له صلة زمالة بشقيقى ، وكان يزورهما فى دارنا وعجبت أن ارى هذا النوع من الانسان .

انسانا يذوب رقة وادبا ، وعلى جبهته ندبة من اثر السجود اذا بلغت بصرك لا تريم عن النظر اليها لأنها مفرق الشخصية وموضع العجب فيها . انها علامة التقى ودليل القيام والدوام على الصلاة ، والصلاة تنهى عن الفحشـاء والمنكر والبغى ، فكيف لم ينتهِ ؟ ! وكيف ينقلب هـذا الحمل الوديع ، هذا المصلى المتعبد المتبتل الى الى وحش ضارى يضرب بالسياط ، ويكوى بالنار ويعلق الناس من ايديهم وارجلهم فى الهواء ، ويغرقهم فى الشـتاء فى ماء مثلج ، والماء المكهرب . ويطلق الكلاب الكاسرة (توسـكا واخواتها) على اجسام البشر تنتهش وتمزق أجسادا كل ذنب اصحابها انهم يقولون لا اله الا الله ، وان مصر للجميع وان الحرية حق ، وان كلمة الحق فريضة على الشرفاء مفروضة من الله .

وبعـد الترحيب الذى طال أكثر من ساعة ـ لم أعرف وقتها سبب طول المدة حتى كنت معتقلا سـجينا وعرفت السبب وهو امداد المتهم للزيارة ، فيرتدى ثيابا معقولة اذا كانت ثيابه تمزقت من الضرب والتعذيب ، ويغتسل اذا كانت عليه آثار دماء أو تراب او تمزقات أظافر الكلاب ، أو كان يبكى ..

ثم يدخل « حصة التوعية » فيقول له ما معناه :

« المحامى حاضر والكلام معه ممنوع وغير ممنوع ، أما الممنوع فانت تعرفه أما غير الممنوع فما عدا ذلك ـ الصحة ، والسلام والجو والشكر لحسن المعاملة ، وكرم الضيافة وتوفر الطعام وان يكون دائما باسما .. « ان نجحت أعفيت من بعض « المهام الرسمية » وان بدت على وجهك اية علامـة سيكون الممنوع « على كيفك » .. النار .. »

ويشار له على آلات التعذيب : السياط ، التعليق والكلابشات والمياه المثلجة والكلاب من الحيوان والكلاب من بنى الانسان .

ثم يقول له « قف . يمين در ابتسم ابتسم كمـان ، الى الامام سر . واحد اثنين واحد اثنين ، واحد اثنين . اجرى اجوى .. وعند قرب المكان يقول له » قف «سر تمام» . وعندئذ يسير السجين هادئا مبتسما .

وهكذا لقينى المئات الذين زرتهم فى السجون : صـورة طبق الأصـل : نسخة بالكربون ابتسامة عريضـة مستمرة كأنهم انما يقضـون وقتهم على ساحل الريفيرا وينعمون بالعيش الخفيض ، والدعة ، وراحة البال ، وخلو القلب من كل ما يهم ويقلق .

والتفت الى عبد الرحمن مخيون وكان قـد نحف ولكنه كان متماسكا ، وقويا حتى أنه بعد المصافحة قال لى :

« لقد تحدد موعد المحاكمة ـ ولعلك علمت من والدى . وكل ما ارجوه منك أن تهيىء لى صحافة واذاعة وسأتكلم وليكن ما يكون المصير » .

ورددت عليه قائلا :

« من الحكمة للمناضل أن يحاول النجاة فقـد يكون فى بقائه حيا نفع اكبر . لنجعـل للاذاعة والصحافة موعدا قد يكون بعـد سنوات وسنوات طويلة ولكن التاريخ فى حاجـة اليك فوفر عمرك لليوم الموعود .. يوم الحساب . »

وقبل أن ينطق كنت لاحظت أن حمزة البسيونى قـد ترك الغرفة وان أحـدا من رجال السجن لم يبق معنـا ثالث العـدد ، يعـد الانفاس ويحصى الكلمات . وتبسمت فقد لاحظت أيضا أنهم تركوا من ورائهم قعيدا عنيدا اشد قدرة على العد والاحصاء والتسجيل ، فقد أخذت عيناى بمنظر أسلاك تكاد تملأ جزءا كبيرا من كل جدار فى الغرفة . فقلت له :

« يستحسن أن نتحدث ونحن نتمشى أمام اعين السجناء حتى لا تكون مجاملتهم لنا مدعاة للشك فيما نقول » واخذته من ذراعه وخرجنا ووجدنا حمزة البسيونى فاستأذنته فى أن نتحدث ونحن نسير على اعين الحرس .

وظللنا نروح ونجىء وبدأت حديثى قائلا :

« انت تعلم ان الضابط الآمر بتشكيل المحكمة العسكرية (أمن الدولة العليا العسكرية) هو رئيس الجمهورية . وانت متهم بالتآمر على قتله وعلى قلب نظام الحكم . فاذا نحن هاجمناه فان عقـوبة الإعدام ستكون من نصيبك بلا شك . وبلا داع وبلا ثمن .

فلنصانعه حتى نفوز بالاشغال الشاقة وربنا يفرجها من بعد ذلك » .

فقال لى :

« ان علاقتى به تبدأ من زمان بعيد ولقـد تزاملنا فى السلاح وفى العريش وفى الفالوجة ثم كنت من الضباط الأحرار وكانت تنعقـد الاجتماعات فى ليال كثيرة فى منزلى . وكنت مديرا لمكتبه أنا وحسن التهامى منذ سنة ١٩٥٢ الى ما قبل القبض على حيث نقلت الى مخازن الكهنة والسبب حدوث نفرة بينى وبين أحد اخوانه . ولأننى راجعته هو فى أمور خطيرة :

« وكنت المخابرات الخاصة لعبـد الناصر حتى انه ارسلنى فى بعثة الى مخابرات أمريكا وظللت هناك تسعة أشهر لا أخرج من مبنى المخابرات وذلك لكى أتلقى أحدث طرق المخابرات .

وكان سفرى الى الولايات المتحدة بجواز سفر سرى وباسم مستعار . ولذلك لم تعرف المخابرات شيئا عن سفرى أو عن عودتى وعندما عرفت أخيرا ذلك جعلت هذا السفر تهمة ولذلك فاننى اطلب استدعاء جمال عبد الناصر وزكريا محيى الدين لكى يؤديا الشهادة عن وقائع هذه التهمة)) .

وظللنا نتحدث طويلا ونحن نروح ونجيء فى طريق الندامة الذى لا يرد ذاهبا ، ولا يعود منه غادى . ومن هذه الاحاديث ما سيظهر اثره فى المحاكمة . ومنه ما لن ينشر الا باذن صاحبه . ولقد نال حريته الآن والحمد لله ولقد كان لا يزال مسجونا منذ ١٩٦١ الى اواخر سنة ١٩٧٤ .





يوم المحاكمة

أحضرت ملف القضية ((وتوفرت على قراءته . وطالعت فيه العجب . فلم يكن لى سابق عهد بمثل الكتب ، وفى دور المحاكم ، أن التحقيق فى قضايا هذه التحقيقات فقد تعلمنا فى كلية الحقوق وفى الجنايات تقوم به النيابة العامة . ومهمة الشرطة هى أن يقوم أفرادها لضبط الواقعة بعد ابلاغ النيابة العمومية وان يعملوا فورا على تحرير محضر جمع الاستدلالات ،

ويحافظوا على آثار الجريمة والتحفظ على الشهود ، ومحاولة ضبط المتهمين أو منعهم من الهرب . وتسليم كل هذا الى وكيل النيابة بمجرد وصوله .

أما فى هذه القضية فقد قامت المخابرات بجميع ما تقوم به الشرطة والنيابة على مدى أيام طويلة دون ان يخطر ببالها أن بهذه البلاد المنكوبة شيئا اسمه السلطة القضائية او كائنا ـ لا يزال حيا ـ اسمه النائب العام .

خرجت من قراءة الملف بعبر ومحزنات وكروب وآلام .. منها ان جل ما هو مسطر فى أوراق هذا الملف الضخم اكاذيب وتلفيق والواقعة الصحيحة هى أن عبد الرحمن مخيون وهو واحد من الضباط الأحرار ، وواحد من ابطال حرب ١٩٤٨ وحرب ١٩٥٦ وهو ينتمى الى عائلة كريمة لها ماض فى النضال الوطنى ، وكان منها دائما عضو فى المجالس النيابية . ولقد عبر الدجوى عن أثر هذه الاصالة فى النسب على سلوك مخيون وذلك فى احدى جلسات استجواب المتهم عبد الرحمن مخيون فقال ساخرا :

« طبعا ما هو حضرتك فارس مديرية البحيرة » .

ولم يرد عبد الرحمن مخيون لأنه قول لا يرد عليه فهل من الممكن ان يقول له .

« لا انا لست فارس البحيرة ! » أو نعم انا فارسها !

ولكننى رددت قائلا بعد أن وقفت وانا اقلب فترة من الزمن فى أوراق الملف على هيئة من يبحث عن شىء يقوله حتى قال لى هو :

« فيه حاجة يا استاذ » ؟

فقلت له :

« حاولت أن أجد ما قلت سيادتك فى أوراق هذا الملف فلم أجده فهل للسيد رئيس المحكمة ان يدلنى على الصفحة المسطور فيها هذا القول .

فسألنى مستنكرا ومتضايقا .

« أى قول ؟ نعم !! »

فقلت له « ان المتهم فارس البحيرة » .

فرد مغيظا وانما باسما .

« لا دى معلوماتى من الجيش » .

فرددت عليه وانا أعطى وجهى وكلماتى صبغة الفكاهة .

« بس سيادتك دائما تقول « أنا ما باجبش حاجة من عندى ده موجود فى الملف » .

فضحك وهو يكاد يتميز غيظا وقال « معلهش مرة من نفسى ! »

فرددت عليه بما زاد غيظه .

« طيب سماح المرة دى » .

اقول ان الواقعة الصحيحة فى كل هذا الملف الذى يتألف من صفحات زاد عن الألفين هى أن عبد الرحمن مخيون وله كل هذه المميزات التى سردناها والحظوة لدى ولى النعم افاق بعد صدمة السقوط من القمة الى السفح ، وأفاق مع ضميره .

فاخذ يدبر أصدار منشورات . واصدرها ووزعها فعلا وكانت هذه المنشورات اكثر ما تتضمن النصيحة لعبد الناصر .

وكما سيأتى كان من سوء فهمه كمتآمر أن وثق فى صيدلى كان من الاخوان المسلمين وكان سجينا مع « الأستاذ صالح أبو رقيق » .

ابن شقيقة عبد الرحمن مخيون . فأمن جانبه وحسب أن هذا الأخ المسلم سيكون عونا له على الاستمرار فى اصدار المنشورات . وللأسف أنه وثق فيه أثر لقاء مفاجىء فى احدى الصيدليات ودون سابق معرفة . وافضى اليه بسره الذى اسرع به كما يقول هذا الصيدلى المسلم الى المباحث العامة مباشرة !

• وسرعان ما علمت أيضا المخابرات من احد الضباط وصديق لأمين مخيون شقيق عبد الرحمن ، وكان هـذا الضابط صديق لعائلة مخيون يعيش معهم ويعاونونه حتى فى « المهر » عند زواجه . ولما شكت المخابرات فى عبد الرحمن مخيون طلبت من هـذا الضابط محاولة معرفة الحقيقة وسرعان ما أفضى أمين مخيون لصديقه بسر المنشورات وطلب منه الانضمام اليهم فى اصدارها .

واخذت المخابرات تدبر وتركب مؤامرة جمعت لها من البحرية ومن الطيران ومن المدنيين ، وانتهت بقدرتها الفائقة الى توجيه ٨ تهم الى عبد الرحمن مخيون وطائفة من الضباط المدنيين وكلها عقوبتها الاعدام .

اقول رأيت فى القضية اعاجيب لم ارها من قبل وكنت قد أمضيت ٣١ سنة فى المحاماة وخمسة فى دراسة الحقوق ..

ورأيت التلفيق على أكمل واتم صورة بما يجعل تلفيق البوليس السياسى من قبل عبثا ولعبة صبية صغار .

ورأيت الصديق يوقع بصديقه بغير ثمن .

ورأيت الأخ المسلم يوقع بأخيه المسلم دون تردد . اما طلبا للمنفعة وقد تمت له وأما خوفا ، والخائفون كافرون لأن من توكل على الله كفاه ، وكفى بالله وكيلا .

ورأيت بعـد هذا كله . . على صفحات الورق الخشن الذى لا هو بالأبيض كلون الورق . ولا هو بالأسود بلون الظلم الذى يجرى فى سطوره . . رأيت دماء نازفة ومزقا من اللحم البشرى ، وقطعا من النفوس الممزقة . وسمعت أنينا وصيحات الم ، وصرخات استنجاد وحشرجات موتى ، وهمسات توسل بالله ورسوله ، وسؤالا للرحمة . . . كما سمعت أصوات سياط ، وضربات عصى غليظة وسمعت لهثات الضاربين المتعبين من قسوة الضرب لا رحمة ولا شفقة ولكنها الرغبة فى الاسراف واستعذاب للمزيد من العنف !

ندم :

ولقد ندمت على أننى تسرعت وقبلت هذه القضية ، واستجبت لنداء عبد الرحمن مخيون ـ مع انه نداء الله فهو نداء الحق ، وهو نداء الواجب . وليس على من واجب فى هـذه الدنيا ـ كعمل ـ الا الدفاع . الدفاع عن المظلومين من بنى وطنى .

ندمت لأننى وجدت نفسى فجأة فى عالم جديد . الظلم فيه هو القانون والحق .

والعدل فيه معدوم لا وجود له . القول فيه قتال ، والسكوت من الظلم فتاك بالضمير .

الحرب فيه ممكنة ولكن القوى غير متكافأة . . واحد ضد دولة . ودولة ظالمة ليس للفرد فيها مهما كانت قيمته اى اعتبار او وزن فى ميزان الموت والحياة .

وفجأة تصورت الرسول صلوات الله عليه ، وكنت منـذ صباى أعيش فى محبته ومنذ عشرين عاما أحيا فى سيرته ، وبين الكتب التى صنفت فى السيرة العطرة . وفى تخيل حياته المطهرة يوما بعد يوم .

تصورت الرسول وهو يقرع آذان الكفار من قريش وكلهم وقتئذ يعبدون الاصنام ، كفار بدعوة التوحيد . مستغرقين فى التعجب من عبادة الله ومن المطالبة بتحطيم الأوثان التى يعبدونها .

تصورت شجاعته التى فتحت للاسلام ليس فقط باب النجاح فى الدعوة ، ولكن فتحت له باب الخلود ، والباب الذى اصبح المسلمون من منافذه يحصون اليوم بألف مليون من البشر الى ان يدخلهم الله باب الجنة التى فتحها لهم محمد صلوات الله عليه لم تصورت اقتحامه على الكفرة والمشركين وعباد الاصنام عقولهم ونفوسهم بشريعة الاسلام ، وأخلاق الاسلام ، والعقيدة التوحيدية التى لم يسمعوا لها من قبل سميا ولا رأوا شبيهها .

وتصورت تعذيب الكفار للمستشهدين من المسلمين المؤمنين فى رمضاء مكة وهم يتمزقون ألما وعلى صوت التمزق والأنين يصيحون « الله واحد » .

ورسمت أمامى صورة الرسول الكريم – صلوات الله عليه – وصحابته والمؤمنين وهم محبوسون فى شعاب مكة المحرقة ثلاث سنوات يعانون مما هو أشد من التعذيب ، بل مما هو اقسى من الموت .

وتذكرت موقعة بدر وعدد المسلمين فيها مقارنا بعدد المشركين وما نزل فيها من قرآن كريم (ولقد نصركم الله ببدر وانتم اذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون) (وما جعله الله الا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به . وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم) .

وعاودنى ايمانى بالتوكل على الله (واذا عزمت فتوكل على الله) وندمت على ما فرطت فى جنب الله وكأنما نسيت انه القادر القاهر فوق عباده وقلت ليكن القتال ، ولو كان من بعد القتال القتل .

وليكن قتالا غير متكافىء للناظرين والسامعين .

وليمدنى الله – ما دمت على الحق وأحارب فى سبيل الحق .

وسلاحى الحق . بآلاف من الملائكة مسومين ومردفين ، « ولينصرن الله من ينصره » .

واخذت طريقى الى المحكمة :

الى العباسية .. ولها فى قلبى ذكريات ناعسة أيقظها ما كنت فيه من محنة ، وتذكرت مدرسة فؤاد الأول وأيامى ولياليّ فيها ، وما كان أحلى العيش فى زمن الصبا ، لا مسئولية ، ولا هم ، ولا خوف ، ولا حساب للحياة أو الموت .

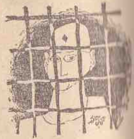
وتذكرت الصبا أول أيامنا فى الجامعة المصرية وكنا أول دفعة تندفع الى المستقبل مقتحمة أبواب قصر الزعفران مقر الجامعة ، وهو الذى كان مقرا لمدرسة فؤاد الأول – وكانت مصادفة أسعدتنا نحن الذين عشنا فى هذا المبنى أربع سنوات جميلة لذيذة ناعمة .

ثم وصلت الى البوابة التى تفصل بين حياة المدنيين وبين الحياة العسكرية .

وهنا خفق قلبى .

واقسم ان خفقاته لم تكن خوفا وهلعا . ولكنها خفقات الألم والحسرة . اذ اننى عشت وامتد بى الأجل حتى ارى مصر كلها قد حولت الى دولة (عسكرية) يحكمها السيف والنار .. حتى القضاء قد أصبح عسكريا ! وقلت لنفسى أمن الانصاف ان يكون نظام الحكم العسكرى هذا هو نهاية الشوط الطويل الذى بدأه قادة الفكر والسياسة من جمال الدين الافغانى ومحمد عبده وعرابى واخوانه ثم مصطفى كامل ثم سعد زغلول .. اهذا هو النظام الذى مات فى سبيله الشهداء وهم يهتفون « نموت وتحيا مصر » وسجن الابرياء المناضلون وهم يقولون « السجن أحب الينا من ان تكون أمنا مصر هى السجينة ! أهذه هى الحرية التى ملأ شعب مصر سماءها هتافا بحياتها ؟ ! »

تحيـــا الحـــرية



لقـد حضرت منـذ اشـتغالى بالمحـاماة امام المحـاكم العسـكرية التى تحـاكم ضـباطا ، وقـد كتبت عن ذلك فى المذكرة التى قدمتها فى هذه القضية . ولكن اقسم بمن نفسى بيده اننى كنت ادخل هـذه المحاكم او المجالس العسكرية التى كانت تقضى بقانون الأحكام العسكرية أو قانون الصحراء اللذين اصدرهما سردار الجيش المصرى ـ وهـو انجليزى ـ كنت اقصدها ، وأدخلها ، وأترافع فيها وانا سعيد جذلان ، مطمئن القلب ، وكأنما أقول لنفسى ان الجيش المصرى هذا هو حبيبنا الأول هو الذى ـ بعد الله ـ يحمينا من العدو الخارجى والعدو الداخلى ـ هو مبعث الأمن والطمانينة حتى فى قضائه .

ولقد كنت وكلت عن السيد/جمال سالم فى سنة ١٩٤٠ او سنة ١٩٤١ أمام مجلس عسكرى وفى ليلة الجلسة حضر الى وهو

الآن بين يدى الله بعد أن تعذب من تأنيب الضمير الذى أفاق بعد غفلة طالت واستيقظ بعد نوم عميق .

والله وهو صاحب الأمر (ان تعذبهم فانهم عبادك . وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم) .

وقال لى جمال سالم .

« لا تذهب غدا الى المحكمة . فلا فائدة !

وسألته « لمـــاذا » .

ورد على « قائلا » :

« ان رئيس المجلس هو اللواء عمر طنطاوى باشا وهو ضابط « ناشف جدا » وفوق ذلك صديق محفوظ باشا ندا والد خصمى « المجنى عليه » وقد كان يتناول أمس طعام العشاء فى منزل خصمى واتفقوا على فصلى من الجيش .. لا تذهب لا فائدة » !

ورددت عليه قائلا :

« اذا كنت مفصولا حتما فلتفصل بعد دفاع خير من ان تفصل بغير دفاع ومن يدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا » .

ووافقنى صامتا غير مقتنع !

واقسم مرة اخرى اننى — رغم هذه الأنباء المزعجة — قصدت الى المحكمة وانا راضى النفس مطمئن القلب ، ودخلت الى غرفة المداولة اتباعا لتقليد لعله انجليزى وهو ان يذهب المحامى قبل افتتاح الدعوى لمقابلة اعضاء المحكمة ليقدم نفسه اليهم . لأنهم سيقدمون أنفسهم فى الجلسة فيقول الرئيس « انا اللواء عمر طنطاوى رئيس » ويقول عضو اليمين « انا اللواء ... عضو يمين ويقول كذلك عضو اليسار .

ودخلت وحييت هيئة المحكمة وقدمت نفسى وتحدثنا الاحاديث التقليدية العادية ثم سألنى رئيس المحكمة عن القضية التى انا حاضر فيها فقلت له .

« انا حاضر عن الملازم جمال سالم » .

فاذا به يعبس — فوق عبوسه الطبيعى — ويقول :

« أعوذ بالله » !

ثم يتمم كلامه **« فيه ضابط يضرب زميله وهو يلبس ملابسه العسكرية ؟ »**

فضحكت أنا وقلت له :

« ألا يتضارب الاخوان الشقيقان ؟ والصـــديقان الحميمان ؟ ثم يتصافوا ويتصالحوا ؟ وسكت ولكن عبوسه بدأ يتحول الى طبيعة وجهه وتابعت أنا حديثى .

« انهما زملاء سلاح .. ومن يدرى فقد يحاربان معا ، ويجرى دماؤهما كما يقول احد الكتاب الفرنسيين ممتزجين معا على أرض المعركة ، وقد يخرجان من هنا صـــديقين عزيز كل منهما على الآخر » .

وهنا قاطعنى **عمر باشا طنطاوى** قائلا .

« يعنى رأيك ايه يا فلان ؟ » وناداني باسمى مجردا . ثم عاد فقال .

« ان صابر طنطاوى أخى صديقك وصديق والدك وكان مأمورا لبلدكم ووكيلا لمديرية أسيوط . وهو يثنى عليكم ثناء كثيرا ... قل لى ما رأيك ؟ »

قلت له « رأيى انه عند ابتداء انعقاد المجلس تنادى جمال سالم وتسأله » .

« هل انت نادم ومستعد للاعتذار ؟ » سيجيبك « نعم ثم تنادى محفوظ ندا وتسأله « هل انت مستعد لقبول اعتذار زميلك وان تغفر له ما وقع منه ؟ »

سيقول لك « نعم » عندئذ تأمر جمالا ان يعتذر ويقبل محفوظ اعتذاره وتطلب منهما أن يتصافحا . وبعد ذلك تأمر « بفض المجلس » .

فقال لى وقد عاد الى وجهه الطيب تجهمه .

« طيب .. اتفضل » وقام ليدخل الجلسة وأسرعت بالخروج لكى الحق الدخول لغرفة الجلسة قبل انعقاد المحكمة ، وعقد المجلس العسكرى ، وفوجئت باللواء الطبيب الفاضل ، الضابط « الناشف جدا » ينفذ ما قلته حرفا بحرف .. وتصافى الزميلان وابتسم الرئيس والاعضاء وخرجنا جميعا مسرورين محبورين وتذكرت عندئذ القول الحكيم لسعد زغلول . وان تقوم المحبة بين الناس مقام القانون »

كان هذا حالى وحال المجالس العسكرية قبل عشرين عاما .

اما حالى اليوم فانا جالس فى سيارتى والجندى (من الشرطة العسكرية) يأخذ بطاقتى ويقيد اسمى وعنوانى والغرض الذى انا حاضر من اجله ثم يقرأ تذكرة المحكمة ويرى انه ثابت فيها اننى محامى عن العقيد عبد الرحمن مخيون وينظر فى وجهى متفرسا طويلا وأخيرا سمح لى بالدخول وكأنما كان يملك أن يمنع محاميا من اداء واجبه ومن كان يمنعه ان يفعل ؟ والى من كان يكون المشتكى ؟!

ذكريات محزنة



سرت بسيارتى فى هدوء لأننى قدرت الموقف .

فكيف يساغ ان يقود الانسان سيارته فى منطقة عسكرية بسرعة ولا يطلق عليه الرصاص خشية أن يكون فى نيته ان يلقى قنبلة مثلا ! فاذا مات وظهر انه محام مثلى ، فانه قد لا يظفر بكلمة اعتذار وهو ميت ، بل يمنع نشر نعيه ، ويحرم على أهله تلقى العزاء !

كان ذلك هو السائد عرفا وقانونا وواقعا !

وفيما أنا أسير خائفا مما صورت لك هوله ، اخذ منظر المبانى بعقلى انها من طابق واحد أو طابقين اما من الطوب الأحمر القانى أو الطوب الرملى الطراز الانجليزى .

ادركت أنها من بقايا مبانى المعسكرات الانجليزية التى أقيمت لا على ارض القاهرة ولكن على قلوب اجدادنا وأكباد آبائنا وافئدة أجيالنا . وانها تمثل لكل مصرى ذلة الاستعمار ، وخدوش اظافره فى جسم مصر الحبيبة .

وسألت نفسى لماذا لم تزل هذه المبانى ؟ هل كانت ميزانية الجيش منذ سنة ١٩٥٢ الى سنة ١٩٦٢ عشر سنوات لا تكفى لاقامة بعض المبانى أو على أسوأ الفروض لازالتها فحسب وهى تعتبر ممثلة لعار الاحتلال ؟

ووصلت الى المحكمة وانا استعيذ بالله وأسأله اللطف فى قضائه . هذا وانا لم اكن قد سمعت عن هذا السيد محمد فؤاد الدجوى اللهم الا عن موقفه فى محاكمة محمد صلاح الدين وعبد الفتاح حسن وما ذاع عن « شجاعته » ! وعما اذاعته محطة اذاعة غزة أو تل أبيب على لسانه ذما فى عبد الناصر !

وذلك عندما كان قائدا للجيش فى غزة سنة ١٩٥٦ او حاكما عسكريا للمنطقة .

ولم يجد المهتمون بهذه الاذاعة ولم اكن منهم - مبررا ولا تفسيرا لاستمراره فى عمله فى الجيش رغم هذه « الكبيرة » التى ارتكبها فى حق الزعيم وقد فسر ذلك مصطفى أمين فى هذا الكتاب .

وتأملت البناء الذى اتخذته السلطات مقرا لمحكمة أمن الدولة العسكرية فاذا هو بناء كنيسة ! نعم كنيسة انجليزية بكل شكل وتفصيل . فلما أفضيت بخاطرى لزملائى وقتئذ « عبد الحميد الساوى - محمد غزالة - محمد عبد الله - محمد الحضرى » قالوا جميعا انها بالفعل كانت كنيسة . فقلت مدد يا سيدنا عيسى . ومدد يا سيدتى العذراء « وقال محمد غزالة رحمة الله لنا ستكون فى حاجة الى مدد من سيدناموسى وسيدنا محمد عندما ترى الدجوى » وضحكوا . وسألت انا متجاهلا هذه الملحوظة التى انطوت عليها المفاكهة وقلت « الا ترون أن ندخل اليه فى غرفة المداولة للتعارف ؟

فكأنما سمعوا تجديفا فى حق الله اذ استنكروا قولى وقال « الساوى » .

« ادخل انت . . أنت من بلد قتالين قتلا يمكن يا يقتلك يا تقتله » .

وفى الساعة التاسعة الا خمس دقائق جاء من ينبئنا بان المحكمة على وشك الانعقاد ويجب ان نتخذ أمكنتنا حتى يغلق الباب فلا يدخلن احد من بعد غلقه . وقلت فى سرى وأنا أسير مع زملائى « يا فتاح يا عليم » وفكرت فى ان ابدى ملاحظة لهيئة المحكمة عن علانية المحاكمة ولكننى قلت لنفسى « لنترك المصادمة لشىء اهم » وكان هذا التفكير والرد اول مساس بحق المتهم فى ضمانة من ضمانات المحاكمة وهى العلانية . رقابة الرأى العام على كل من المحكمة واجراءاتها ، والمدعى ومرافعته والدفاع وامانته أو خيانته فى دفعه عن المتهم .

العلانيــة

علانية انعقاد المحاكمات كانت مفقودة منذ قيام الثورة وهذا دليل قاطع على أن أصحاب السلطان فى هذا الانقلاب كانوا يعلمون حق العلم أنهم يرتكبون ظلما وبهتانا ، وانهم لا يريدون أن يطلع الشعب على ما يوقعونه من عسف وجور ويريدون فى الوقت نفسه ان يوحوا الى الشعب - الرأى العام - السلطة العليا التى يستمد منها كل حاكم سلطانه ، وتقوم السلطة فى الدولة ثابتة قوية على أساس رضائه - بأن المتهم مجرم فيعرضون عليه صحيفة الاتهام ونبأ المحاكمة ثم الحكم . ويحرمونه من مباشرة الرقابة على طريقة المحكمة فى اعضائها : وتوفر الضمانات التى تضمنتها المواثيق والدساتير منذ عهود الأديان والثورات فى سبيل الحرية وتضمنتها الماجنا كارتا فى انجلترا واعلان الحقوق فى امريكا ومبادىء الثورة الفرنسية وأخيرا أعلن فى ليك سكسس - ميثاق حقوق الانسان .

ولذلك فاننا جميعا كنا لا نخاف الا الصاق تهمة الجاسوسية أو الخيانة العظمى بأحد منا . وذلك لوثوقنا ان مثل هذا الاتهام سيعلن للناس منه ورقة الاتهام ثم تاريخ جلسة المحاكمة ثم الحكم . وبذلك يلصق بأذهان الناس أن فلانا خائن خيانة عظمى .

ولقد صنعوها مع الرئيس السابق ابراهيم عبد الهادى كانت احدى تهمه وأولاها الخيانة العظمى ، وأصرت المحكمة على نظر الدعوى فى جلسة سرية وأصر المتهم على أن تنظر القضية فى جلسة علنية . ولكنهم تعللوا بعلة وهمية بل كاذبة وهى أن فى الوقائع ما هو معتبر سرا من أسرار الدولة . ولما نظرت الدعوى لم يجد الرجل الكبير لا سرا ولا دولة ولا شيئا الا الرغبة فى اتهامه واشاعة التهمة الغليظة عنه مع سد آذان الناس عن سماع الوقائع الحقيقية وغلقها دون دفاع المتهم . ودون وصول هذا الدفاع الى الشعب صاحب الدعوى العمومية . ناسين ان هذا الدفاع واصل الى الله القاضى الأعظم .

محـــــكمة :

وقال الحاجب وهو عسكرى مجند « محكمة » !

ولكن نفسى حدثتنى عندما رأيت الرئيس والأعضاء قائلة والله انها ليست محكمة ! كذب النداء ، والمنادى . انه محل جزارة الدجوى . ولكننى نهرت نفسى عن الهوى وسبق الحكم . وقلت لها مكانك يا نفسى تحمدى أو تستريحى . تربصى وتلبثى ولا تسرعى بالحكم ! فقالت لى نفسى ولسوف ترى !

وقال الفريق محمد فؤاد الدجوى :

بسم الله الرحمن الرحيم .

وقالت لى نفسى ساخرة « وتجرأ هذا الرجل على ذكر الله ؟ . الا والله ما أكذبه » ! ونهرتها .

وقال بعد ذلك .

قرار جمهورى بتشكيل محكمة أمن الدولة العسكرية العليا .

وقرا القرار حتى اذا وصل الى تكوين المحكمة قال باعتزاز جنونى .

« الفريق محمد فؤاد الدجوى » ثم أشار الى نفســه قائلا « أنا » ونادى باقى الأسماء ثم قال « حلف اليمين »

وحلف اليمين . وعنــدئذ قالت لى نفسى « **أتذكر المرحـــوم محمد خالد باشات المحامى عندما كان وكيلا للنيابة** ، كان اذا جاءه شــاهد قال له « قل والله العظيم اقول الكذب » فاذا توقف الشاهد رد عليه المرحوم باشات وكان من اظرف الناس واخفهم دماوأملكهم للنكتة الرائعة قائلا « قل . قل حتى لا تقع فى اليمين » ويعنى بذلك انه سيكذب حتما !

وها هم أولاء يحلفون بالله وأكفهم مبسوطة على المصحف وانهم لحانثون فى يمينهم ، كاذبون فى حلفهم وقالت لى نفسى ناد عليهم يارجل وقل لهم « أوقفوا اليمين » فانكم ستحكمون ظلما . . ولما نهرتها ـ هذه النفس الخبيثة الماكرة عادت تقول :

« ولو سمحت قم من مكانك ـ حمـــاك الله وقواك وانزع اللافتة المثبتة وراء أقفيتهم وهى المكتوب فيهــا « **واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** » .

وقلت لها « **يأيتها النفس الماكرة اليك عنى واتركينى أؤدى عملى ..** ومن يدرى فقد يكون الرئيس رجلا عادلا صاحب ضمير وله دين ويخشى الله . من يدرى ! »

وضحكت النفس الماكرة وبدا الرئيس ينادى على كل متهم وهو يقول بدلال وتمايل وعجب :

« عندما انادى اسم المتهم يقف ويقول نعم ويقف محاميه ويملى اسمه » .

وقال .

عبد الرحمن محمود مخيون وكان المتهم الأول .

فقام عبد الرحمن وقال « نعم » .

وقمت أنا وقلت حاضر معه واسمى محمد شوكت التونى .
فرد على برغبة فى السخرية « محمد ايه من فضلك ؟ »

ورددت اسمى مرة ثانية . فاذا به يصمت فترة ويقول بعدها لأمين سر الجلسة « كتبت الاسم . محمد ايه ؟ ونظر الى بتحد » .

فقلت انا بمنتهى الهدوء والأدب .

« محمد » . وانتظرت . ثم قلت « شوكت » وانتظرت . ثم قلت التونى . فقال ضجرا

« عندنا عمل كثير يا استاذ .. شهلنا شوية ! لما نضيع مع كل متهم ومحامى مثل هذا الوقت مش حانخلص ! »

وصمت وانا انظر فى وجوه زملائى فاجدها مصفرة قد علاها الخوف وهم يعلمون اننى لا اسكت على هذا الأسلوب من المعاملة وترقبوا معركة مصيرى فيها معروف ولكننى ابتسمت وصمت .

وانتهى نداء المتهمين واثبات اسماء المحامين وبدأ يقول بادب :

« هل لأحد من حضرات المحامين طلبات أو شهود ؟ »

فقام أحد الزملاء وطلب التأجيل لعدم اتساع الوقت للاطلاع والتمكن من الالمام بالدعوى لضخامة الدوسيه .

فرد قائلا « المحكمة قرات الملفات ولخصت القضية وحافظاها زى الميه وكان يجب على حضرات المحامين ان يستعدوا والمحكمة رفضت التأجيل » .

ونظر لأمين السر وقال « اقرا الاتهام » .

وقاطعته قائلا :

« لو سمحت » !

ونظر الى نظرة استنكار وقال لأمين السر :

« اقرا »

وقاطعته قائلا مسترسلا :

« استسمح المحكمة فى ان اقول انها عممت حين قالت كان يجب على حضرات المحامين . والذى طلب من المحامين هو واحد قد تكون له ظروف خاصة ولكننا جميعا مستعدون لنظر القضية وان كنا غير مستعدين لأن ينبهنا احد الى واجبنا مادمنا لم نقصر فى اداء هذا الواجب .

وغاظه هذا القول . وقد فهم زملائى ان سكوتى سالفا انما هو تحين لفرصة فتبسموا ثم قاموا جميعا يعلنون استعدادهم لنظر القضية واكتفى هو بقوله لأمين السر :

« اقرا » .

وقرأ . وانتهى . وقام المدعى يطلب تطبيق مواد الاتهام ويطالب باقصى العقوبة واخذ الدجوى بعد ذلك يسأل « المتهم » عما اذا كان مذنبا أم لا ؟

وما ان انتهى حتى سال :

« هل هناك طلبات من الدفاع » ؟

وقمت قائلا :

« ان الدفاع عن المتهم الأول يطلب اعلان شهود نفى » .

ودون ان يرد اشار بيده وذراعه الطويلة الى أمين السر كمن يقول لى اسلى . وبدات من ورقة اقول :

اطلب استدعاء السادة الآتية أسماؤهم لسؤالهم امام هيئة المحكمة وهم :

السيد/جمال عبد الناصر

السيد/زكريا محيى الدين

السيد/عبد اللطيف البغدادى

السيد/الليثى عبد الناصر

وعندما قلت السيد جمال عبد الناصر « كان جسم الدجوى قد اهتز بأكمله . وذكرت الأسماء التالية بسرعة واهتزازه يشتد وقسمات وجهه تعلو وتهبط ، وتتحرك شمالا وجنوبا ، وذراعاه الطويلان وكفاه وأصابع يديه العشرة كل واحد منها يتخذ موقفا غريبا وفجأة قال لأمين السر .

« قف » .

وعاد بصوت متهدج وقد بدأ يستعد للهجوم فى معركة ضارية قائلا .

« اكتب : الدفاع عن المتهم الأول طلب سماع السيد/رئيس الجمهورية واثنان من السادة نواب السيد/الرئيس .

وقبل أن يستمر فى املائه قاطعته قائلا :

« أنا لم اطلب احدا من أرباب الوظائف العامة انما طلبت أسماء مواطنين هم السادة جمال عبد الناصر » .

وقاطعنى هو :

« السيد/جمال عبد الناصر هو السيد/رئيس الجمهورية وهو لا يصح استدعاؤه كشاهد » .

قال هذه الجملة بصوت عال فيه نبرة الاعتداء .

ورددت عليه :

« ليس هناك مصرى يستكبر على المثول أمام القض[اء] كان ذلك فى زمن الملكية بدعوى ان ذات الملك مصونة ! ! او وجو[د نص] فى الدستور يمنع من استدعاء الملك للمحاكمة أو للشهادة وقاط[عنى] قائلا »

« عايز تقول ان الملك احسن من رئيس الجمهورية » .

ورددت « نحن هنا لا نفاضل . وانما ننزل حكم القانون . أن الفرق هو أن الدستور كان ينص على ان الملك ذاته مصـــــونة لا تمس . واما رئيس الجمهورية فهو مواطن من افراد الشعب ينتخب أعواما ثم يعود الى صفوف الشعب . وللعلامة ديجى بحث فى كتابه « القانون الدستورى » عن هـــذا التفريق يسعدنى ان ادلى به لهيئة المحكمة ان شاءت فأراد أن يقاطعنى بخشونة قائلا »

« علمنا يا سيدى .. اعطنا دروسا فى القانون » !

وقلت فى هدوء « ان العلماء يستزيدون من العلم دائما . ولا يأبى التعلم الا المتعالون . وأما بالنسبة لما اقوله فهو جزء من حقى فى الدفاع عن حق موكلى فهو ليس سفسطة وليس هو اجابة لطلب المحكمة الساخر » .

وقاطعنى قائلا :

« حضرتك اسمك ايه ؟ »

فاجبته بسرعة .

« لقد أمليت اسمى مرة ثم مرة أخرى بناء على صعوبة الاسم على سمع المحكمة والاسم ثابت فى محضر الجلسة يمكن للسيد أمين السر قراءته للمحكمة . ومع ذلك فان الدفاع عن موكلى وبسط وجهة النظر القانونية لا صلة لها بكون اسمى محمدا او حنـــا أو منقرع أو جنكيز خان »

وهنا قال صارخا .

« خلاص . اكتب (لأمين السر) والمحكمة رفضت طلب الدفاع عن المتهم الأول استدعاء شهود .

ورددت عليه صارخا .

« لك الحق ان ترفض . ويسجل هذا الرفض فى محضر الجلسة ليسجل معه للتاريخ اخلال المحكمه بحق الدفاع . ولكن الذى ليس لك الحق فيه ابدا ، أن تصرخ فى وجهى بهذه الصورة التى لا اقبلها فقط وانما ارفضها وأنا أؤكد لك ازاءها انك لو خاطبتنى بهذا الصوت العالى فان صوتى سيكون اعلا وان قسوت فى اللفظ سيكون لفظى أقسى انك لا تستطيع أن تخاطب خادما فى بيتك بهذه اللهجة وأنا لست مراسله عندك .. »

وتصدعت جدران الغرفة بانفعالات مختلفة كان أهمها الشماتة فيه ثم الاشفاق على من مغبة هذا الهجوم المضاد . حتى ان زملائى – اكرمهم الله – بعد أن رفعت الجلسة جاؤونى وكان اكثرهم هلعا اخى وصديقى عبد الحميد الساوى وجميعهم يطلبون منى الاشفاق على صحتى . وناولنى الزميل الفاضل المرحوم محمد غزالة قرصين مهدئين . وخرجنا الى غرفة المحامين ولما كنت قد اهتززت فعلا مما وقع من هذا الرجل ومما رددت عليه به فقد اخذت اتمشى انا ومحمد غزالة تحت الظلال الباهتة لاشجار عانية زرعها الانجليز وعاصرت الاحتلال كله والظلم كله وها هى تشرف على نوع اليم من الظلم : ظلم المصرى لأخيه المصرى !

وكان محمد غزالة يحاول أن يبين لى خطورة النتائج التى قد تترتب – والاحتمال كبير – عن موقفى مع هـذا « الغول » وقد اعطاه عبد الناصر سلطة واسعة فان له أن يقترح على المخابرات اعتقال شخص والقاءه فى السجن الحربى وما يتبع ذلك من بلاء . بل أعطاه سلطة اقتراح قتله ودفنه فى رمال الحلمية والعباسية .

وقلت له :

« اننى استبعد أن يفعلوا ذلك قبل الانتهاء من نظر القضية ، ومع ذلك فليكن ! سأقول لهم ما اريد قوله . وما يريد كل مصرى ان يصيح به . وبعد ذلك فالأعمار بيد الله . وكيف الهرب من مصير أرادة الله » .

وقال غزالة :

« ألا تلاحظ أن هناك آلتين للتسجيل .. ان احداهما يذهب بها رسول خاص بعد الجلسة الى عبد الناصر لكى يسمع كل ما دار بالجلسة . والأخرى يأخذها مندوب المخابرات الجالس بالقاعة للمخابرات !

ورددت عليه :

« عال . هذا حسن . اذ أن ما نقوله لن يذهب ادراج الرياح ! وانما سيحفظه التسجيل للزمن والتاريخ !

وفيما نحن نذهب ونجىء وأنا أتخيل من تتابع الخواطر ومما تثيره العبارات من مصير والنفس تجزع حينا وتتشجع أحيانا ، وتؤثر الحياة مرة وتزهد فى حياة الذلة وخيـانة الامانة مرات ومرات . ثم يعاودنى الندم على قبول المرافعة أمام محـاكم « الدجوى »

اذا بالمدعى العام – **المرحوم اللواء سيد جاد – يتمشى هو الآخر – أو يتظاهر بذلك ويلاقينا ويحيينا ثم يسلم بيده ، ولم أكن أعرفه فعرفنى بنفسه ثم قال » :**

« لـماذا هذا الخلاف ؟ ان سيادة الفريق الدجوى رجل طيب وانت علم من أعلام المحاماة .

وقاطعته ضاحكا وقلت :

« علم من أعـلام المحاماة يساله ثلاث مرات فى ١٠ دقائق عن اسمه ؟! »

فقال :

« على العموم لو سمحت ندخل له فى غرفة المداولة ونصفى الموقف »

وادركت انا ان الشجاعه تجزى صاحبها دائما فتشددت وقلت له :

« يا سيد بك انه هو الذى اعتدى على وعلى حقى وحق المتهم وان لى أيضا مثل غرفته ، غرفة المحامين فان كان يريد تصفية الموقف والتفاهم واحلال التعاطف والمودة مكان الجدل العقيم والتصادم المحزن فليتفضل بتشريفنا فى غرفتنا » .

فرد قائلا :

« من اجل خاطرى تفضل معى »

قلت له :

« مستحيل ولو شنقونى »

فقال بهدوء وبساطة وكانه يهمس :

« واذا كان هو الذى طلب منى ذلك ؟

وقبل ان يستحثنى محمد غزالة على القبول اسرعت قائلا »

« ما دام هو الذى طلب فاننى ذاهب اليه »

فرد سيد جاد قائلا :

« ارجوك لا تقل له ذلك »

وضحكت وسرت معه ـ ودخلنا نحن الثلاثة وهم جميعا الآن بين يدى الله والله على ما أقول شهيد واذا به يقف مرحبا باسما ناعما .

« أهلا أهلا .. بالأستاذ العظيم الذى نسمع به دائما ولا نراه .. يا استاذ احنا بنتعلم منك انت استاذ اجيال .. انت .. انت

فرددت عليه بهدوء .

« يا سيادة الفريق ليس من طبعى الاعتداء اطلاقا ولكننى رجل احب الناس وأشعر ان الناس يحبوننى لأننى ودود وهادىء ولكن اذا قدرت انك انت فى موقع القوة والسلطة فوق . فوق القمة وانا والمتهم الذى أقف بجواره مدافعا وحالى اسوأ من حاله فقد القى كل العبء على . والى تنسب كل النتائج .. أنا وهو فى القاع . مسلط علينا سيف الاتهام بثمانية مواد من القانون عقوبتها « الاعدام » ! نعم الاعدام وليس فى قانون العقوبات غير عشر مواد يعاقب فيها القانون بالاعدام . لم يبق الا القتل بالتسميم واشعال الحريق فى المساكن وموت أحد الناس فتكون مطبقة عليه جميع مواد الاعدام فالموقف يتطلب منك العفو وسعة الصدر والمعاونة والأخذ بيدنا ان قصرنا والتصحيح ان أخطأنا ان موقفنا يستتبع لخطورته الخوف . والخوف ينتج الخطأ والتقصير والانفعال والعصبية . فنسألك الرفق ، وفى الوقت نفسه أحب ان اقرر لسيادتك اننى رجل كما قلت هادىء وودود ولكننى ان اثرت لا أملك اعصابى . فارجو ان نتفق على ان تقوم بواجبك كاملا ولكن فى حدود ادراك اننى رجل لى كرامة وكرامتى من النوع الصعيدى « السخيف » الذى يقتل ويقتل من اجل قرش تعريفة !

وضحك وضحكنا وقال لى :

« انا احب القراءة واعرف ان لك مؤلفات عن المحاماة وعن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن الدستور فهل اطمع فى نسخة من كل منها » .

« بكل ممنونية »

« صافى يا لبن »

وقلت له « صافى يا لبن »

وتصافحنا . ولكن هذا الصافى يا لبن لم يدم طوال خمس سنوات اكثر من خمس دقائق .

وانعقدت الجلسة وقال كل محامى من الزملاء ما يريد أن يطلبه من المحكمة من ملفات واوراق الا أنا فقد « حرم على » أن اطلب شهود نفى لقوله لى وهى حيلة تدل اما على ذكائه أو على ان احدا يخطط له ما يقول . وأنا أرجعها الى ذكائه بعد ان اختبرته قرابة عام مستمر وأنا احضر امامه فى قضـايا حسين توفيق والشهيد سيد قطب والاخوان المسلمين .

« كلما عرضنا لواقعة واردت ان تطلب شاهد نفى عليها أطلبه ونحن نرى » .

« يعنى ترى اجابة الطلب أو عدم اجابته ؟

« ايوه »

« ولكن فيه واقعة لا ينفيها ولا يجرمها الا شهادة الرئيس جمال عبد الناصر »

وهى اذا صحت ساقول لكم أنا اشنقوا هذا المتهم !

فجزع وكاد ان يتردد ولكنه تسرع – وكنت أقصد ان أزنقه فيها – قال :

« وما هى ؟

وعاد يصرخ « انما بسرعة .. من فضلك »

فاجبته « لا سرعة هنا . هنا عدالة او ظلم » .

وكدنا نتشاحن ونتقاتل بعد دقائق من الهدنة او معـاهدة الصلح !

ولكننى سارعت بعرض الواقعة حتى لا يفيق ويمنعنى من الكلام .

« التهمة الرابعة تقول انه تخابر مع دولة أجنبية وقد سافر الى هذه الدولة بجواز سفر مزور مذكور فيه اسم غير اسمه وبقى

هناك تسعة اشهر وعاد بعد ان اتصل بمخابرات هـذه الدولة الاجنبية » .

« والدفاع بلسـان المتهم يقرر ان الوقائع كلها صحيحة » وحصلت همهمة من المحكمة والجمهور ولكننى تابعت حديثى قائلا :

« ولكن ذلك كان بأمر من السيد/الرئيس جمال عبد النـاصر فقد بعث به الى الولايات المتحدة والذى استحضر له جواز السفر هو السيد/زكريا محيى الدين وقد درس المتهم تحت اشراف المخابرات الأمريكية أعمال المخابرات والمقاومة وغـيرها ولما عاد قدم إلى السيد/الرئيس تقريرا عن هذا .

فانبئونى اذن من الذى يجيب الاجابة الصحيحة على هـذه الواقعة فيبرؤها غير الرئيس جمال والسيد/زكريا ؟

وهنا ادرك الدجوى انه وقع فى مصيبة كبرى لانه يدرك ان عبد الرحمن مخيون مقدم اليه لكى يطيح برأسه ، والتهمة الرابعة هذه هى الوافية بالغرض ، والقدير على النتيجة فهل سيكون الرئيس عبد الناصر غاضبا على سماحه للمحامى بفضح هـذه الواقعة أم سيكون راضيا ؟! علم هذا عند الله هل تقف المخابرات مكتوفة اليدين ؟ مع انها هى التى وضعت قائمة الاتهام . وهى التى قدمت البلاغ الى النيابة ومعه ما يسمى « بالاقرار » وسيأتى حديث شيق ومؤلم ومقطع للاكباد عن هذا الشىء المسمى « الاقرار » فى القضايا التالية .

وتخلص من ذلك كما يتخلص الحائر فى الظلام برفع الجلسة وبعد نصف ساعة عادت المحكمة للانعقاد واعلن الدجوى تأجيل الجلسة الى بعد غد – لا الغد – وهو الذى رفض منذ ساعة من زمن التأجيل لمحام لكى يستعد .

ولما كنا نكتب بعد هذه الاحداث بزمن يزيد على العشر سنوات فلنفسر ما هو غامض ولا ننتظر حتى تكون حبكة درامية فنحن نكتب تاريخا وتاريخا خطيرا وهاما لأنه جزء من نكسة يونية سنة ١٩٦٧ ولأنه كان من اسباب الانهيار .

فالذى حدث أن المحكمة سألت المدعى العام الرأى فخابر الجهة المختصة بالقضاء العسكرى فاشير عليهم أن تؤجل الجلسة يومين حتى يتصلوا بالرئاسة . وبالمخابرات .

* * *

وبعد الغد انعقدت الجلسة وعقب انعقادها وقف المدعى العام وقال :

« ان الادعاء يطلب استبعاد التهمة الرابعة من صحيفة الاتهام »

ونظر الى الدجوى وكأنه كان ينتظر منى ان اقف مسبحا شاكرا هذا الموقف وعدله وقال :

« الدفاع لديه كلام »

واجبته .

« لقد تكلم الله سبحانه وتعالى »

فاغتاظ وابتدا فى استجواب المتهم الذى نفذ الاتفاق . وكان قوى الأعصاب ثابتا شجاعا وهو يقول .

« تسمح لى المحكمة بكلمة قصيرة ! »

فهز رأسه الدجوى هزة يفهم منها الايجاب وعند اللزوم يفسرها هو بغير ذلك اذا سارت الرياح بما لا تشتهى السفن .

وعاد عبد الرحمن يقول :

« اننى عملت مع الرئيس جمال عبد الناصر زميلا فى السلاح ومحاربا فى حرب فلسطين وعضوا فى حركة الضباط الأحرار ثم مديرا لمكتبه من سنة ١٩٥٢ الى سنة ١٩٦١ وبينى وبينه اسرار ساحفظها فى صدرى وسأنزل بها الى قبرى وساكون الزميل الوفى الامين ؟

وانشرح صدر الدجوى وقال بلهجة ودية وابتسامة :

« أيوه يا عبد الرحمن »

وكان ان اراد اظهار الود بينه وبين أحد المتهمين او الشهود او المحامين ناداه باسمه «مجردا » واستمر عبد الرحمن قائلا :

« وقبل أى حديث أحب أيضا أن أقول اننى لازلت ضابطا فى القوات المسلحة ، ولا زلت ارتدى ثوبى العسكرى الذى تشرفت بارتدائه منذ أن كنت طالبا فى الكلية الحربية . ومع ذلك فان هذا الشرف الذى يلازمنى رتبة وثيابا لم يمنع زملائى من ان يستحضروا لى عساكر ليعتدوا على فى حضورهم بالضرب والتعذيب ؟

وهنا بدا التأثر على وجوه الضابطين العضوين فى المحكمة وعلى وجوه المحامين وباقى المتهمين . وكان لا بد ان يتحرك الدجوى ، وكان فى مثل هذه الظروف سريع التحرك فقاطع عبد الرحمن صائحا وانما فى ابتسام :

« ما هو يا عبد الرحمن يا خويا لازم تفهم كويس ان الثورة مالهاش على الحجر غالى .. حبيب حبيب لكن تقع مايبقاش غالى ولا حبيب . آه .. اللى يلعب بالنار ما يعيطش » . وهنا عاجلته بضربة قاضية اذ قمت قائلا بحركة تمثيلية درامية وصوت كالرعد اقول :

« معنى هذا ان المحكمة تبيح الضرب والتعذيب واستعمال القسوة بمنطق ان الثورة مالهاش على الحجر غالى » .

فرد صارخا :

« مين قال كده »

وصرخت انا

« انت قلت كده . ودلوقت حالا »

« انا ماقلتش انني أبيح التعذيب ولا الضرب »

وصرخت اكثر :

« لم تقلها بالنص ولـكن قلتها بالمعنى .. وانا أطلب أن يثبت ما قاله السيد / رئيس المحكمة فى محضر الجلسة .

والتفت الى أمين السر وقلت له :

« انت أمين على محضر الجلسة فاثبت فيه كل كلمة قيلت ومنها اقوالى وبدأت الحيرة على أمين السر والدجـوى لا يزال يصرخ او يهذى ؟

وقلت :

« اثبت والا تكون مرتكبا جريمة التزوير بعدم الاثبات ما يجب اثباته فى ورقة رسمية » .. وهنا اندفع الدجوى صائحا ومشـيرا بيديه :

« لا تثبت كلمة واحدة دون املائى انا . انا الرئيس هنا .. انا رئيس المحكمة لا حضرتك ... رفعت الجلسـة » .

وشحن الجو كهرباء .. وكنت انا سعيدا بما وقع بالرغم من اندفاع زملائى جميعا الى وهم يرتجفـون خوفا على وخشـية من سوء العقبى . وملأ غزالة يده من أنواع المهدئات وجاء لى بكوبة ماء وارغمنى على ابتلاع هذه المهدئات التى لم اكن استعملها مطلقا .. وهأنذا الآن اكثر من استعمالها ! فقد تكسرت النصـال على النصـال !

وجلسنا فى غرفة المحامين لا نتكلم فيما وقع ولا فى كيفية الخروج من هذا المأزق . ولا ما هى المعقبات ولكن يحكى بعضنا ما فعل الدجوى بمحامين افاضل فى قضايا سابقة فقد كان يترافع الاستاذ محمد عبد الرحيم غنيم وهو مستشار سابق فى محكمة النقض ونائب عمومى سابق ومدير ادارة قضـايا الحكومة واستاذ بكلية الحقوق ومن أفضل رجال القانون والقضاء خلقا وعلما وفجأة لم تعجب مرافعته الدجوى فصرخ فيه :

« يا غنيم عبد الرحيم محمد تمت مرافعتك . أقعد . »

ولما كان الاستاذ الكبير رجلا فاضلا مهذبا ليس من طبعـه الخصام ولا الصدام فانه آثر أن يجلس والقى المسئولية امام الله على هذا المتجبر .

وقص احمد مختار قطب وهو من المحامين المتمكنين الثابتين حتى لتراه دائما باسما انه احتار فى مناقشة مع الدجوى فى قضية كيف يوصل دفاع موكله الى المحكمة باى ثمن فيؤدى الامانة ولكنه عجز فبكى !

نعم بكى . وافتخر الدجوى بهذا البكاء فيما بعـد فى أثناء نظر قضية مخيون كما سيجىء تفصيل ذلك .

ولقد تأرقت ليالى بعد ذلك بسبب هذا البكاء . فلقد وجدت حرصا من المحامى على اداء واجبه وتعنتا من القاضى الى حد أن يمنع المحامى من القيام بهذا الواجب المقدس . ويستعين على منعه بسلطته العسكرية وبانعدام قواعد القوانين من الرد او الشكوى . وبالخوف من مصادفة الذين أصبحت جميع السلطات فى أيديهم يحيون ويميتون ويعزون ويذلون .. ولقد اكتفيت ان تغنيت بأغنية اسماعيل صبرى باشا .

عشنا وشفنا سنين ومن يعيش يشوف العجب .
شربنا الضنى والأنين كان لأرواحنا طرب .

وفيما نحن فى هذه الأحاديث والانفعالات نتكلم مرة بصراحة ولكنم الصراحة مرات فان من حولنا جنــد وغير جند لا نعرفهم ولا شك انهم جواسيس علينا ينقلون عنا ما نقــول وخاصــة عن عبد الناصر . واذا بجندى يقول أن المحكمة ستنعقد . وانعقدت الجلسة ودخل الدجوى القاعة فى اهاب جنكيز خان وجلس واشــار علينا بالجلوس كانما يقول انا الآمر الناهى هنا « أنا الرئيـس » كما قال فاذا لم يشر علينا بالجلوس نظل واقفين ثم قال :

« ان المحكمة لم تبرر التعذيب ولا الضرب . وهى لا تتفق مع الدفاع فى التخريج الذى ذهب اليه :

وقمت انا للكلام وتحفز هو لمعركة وقلت :

« والدفاع يكتفى بهذا الايضاح الذى كان لابد منه »

وقال الدجوى وهو فى منتهى الضيق والضجر واسبرم .

« لابد منه يعنى ايه ؟ »

وقام اللواء سيد جاد المدعى وطلب الكلمة وقال :

« ارجو من هيئة المحكمة الموقرة ومن الدفاع الذى نكن له كل تقدير واحترام ان يعتبروا الأمر منتهيا .

وابتسم الدجوى وقال :

« وهو كذلك »

« وقلت انا ضاحكا »

« وهو كذلك ايضا »

واستمرت المحكمة تستجوب المتهم .

وآثرت خطة مثلى وانا استمع الى الاسئلة والاجوبة وهى أن اترك التصادم واتصيد اخطاء الدجوى لاقول فيها وأعلق عليها كما

انشاء فى دفاعى وفكرت فى العبارة التى قالها وهى « أن الثورة ما لهاش اهالى الحجر غالى » وقلت القصاص منه فى المرافعة والويل له لو فكر فى مقاطعتى او ارغامى على انهاء مرافعتى .

ولكن فجأة سمعته يعلق على اجابة لعبد الرحمن بقوله :

« طبعــا ما هو انت فارس « البحيرة » ــ أى مديرية البحيرة لان عبد الرحمن من أهلها .

وكنت لاحظت انه بالرغم من ثبات عبد الرحمن وجلده ومقارعته للدجوى فى سلسلة اسئلته وهى اسئلة معدة . اما انه أعدها بواسطة معاونيه ــ لاحظت انه ارهق . واخــذت اتحين الفرصــة للتدخل فلما قال العبارة ســالفة الذكر وقفت دون أن انظر الى المحكمة واخذت اقلب صفحات الملف طبعا دون أن اقصد العثور على شيء ولكننى أوهم بذلك . فتوقف الدجوى عن الاستجواب استجلى ما انا فاعل ولما يئس سألنى :

« فيه حاجة يا أستاذ ؟

واجبتــه :

« نعم أننى ابحث فى الملف عن اقوال الشــاهد الذى قرر أن موكلى فارس البحيرة او انه اشتهر بذلك أو انه قال عن نفســه ذلك » .

واغتاظ الدجوى وهو يعلم اننى أعرف تمام المعرفة أن هذه العبارة من عنده وانه ليس لها أصل فى الأوراق واننى أغمزه بهذه الملحوظة .

وعمد الدجوى بلباقة وذكاء – الى الاسراع بانهـاء مناقشة عبد الرحمن – أو بايحاء من جهات أخرى ولقد عرفنا من بعد ذلك بسنوات بأن جهازا خاصا فى المخابرات كان يتابع مثل هذه المحاكمات ويوجهها الوجهة التى يبغيها . بل لقد عرفنا فى نفس المحاكمة وعلى لسان الدجوى ان عبد الناصر كان يتابع المحاكمات فقد وقعت مشادة بينى وبين الدجوى وفى انفعاله اندفع يقول :

« وهـل نعمل هنا فى الخفاء ونتكلم على غير هدى ؟ ان هـذا الكلام أقوله كرجل مسئول . وفى الساعة الثالثة مساء سيستمع الرئيس لهذه التسجيلات (واشار على آلات التسجيل وكان فى القاعة ثلاث منها) .

ولقد رددت أنا على هذه الكلمات بقولى :

« ما دام الامر كذلك فأعرنى يا سيادة الرئيس اقصد عبد الناصر اذنك لكى أقول لك . . »

وتابعت هجومى على الاجراءات الاستثنائيـة وفى التحقيق والمحاكمة وعلى جهاز المخابرات وعلى السجن الحربى كما سيوضح فيما بعد عند الحديث عن المرافعة .

* * *

انتهى الدجوى من مناقشة عبد الرحمن ثم بدا مناقشة اخيه الرائد أمين مخيون ولم يطل استجوابه بدا بعد ذلك بالضابط الطيار يحيى سعد . وقد حضرت مناقشته وكدت أن اتطوع للدفاع عنه لأن محاميه كان زميلى وصديقى الأستاذ محمد الحضرى وهو محام وديع ولم يتمرس بهذا النوع من المحاكم ولا بهذا الجنس من الاناسى . فكان يتحـدث برفق وأدب ولين مع الدجوى مما جراه عليه فكان يرد عليه ردودا قاسية . ثم اخـذ بعنف المتهم تعنيفا فيه بذاءة بلغت الغاية واوفت على النهاية اذ انه ظل يكرر عبارات نصف غامضة ونصف واضحة يهدف بها الى الاساءة اليه

فى خلقه حتى لقد بكى الضابط الشريف الفاضل من قسوة الالفاظ والمعانى . وهو الضابط الذى أعدته الدولة وانفقت عليه الالاف من الجنيهات لتدريبه وتهيئته لقتال العدو والاستشهاد فى سبيل الوطن العزيز . وكل ما هو متهم به هو انه اشترك فى كراهية رئيس الجمهورية والرغبة فى تبصيره بما وصلت اليه حالة الجيش من الفساد وما انتهت اليه البلاد من سوء فى جميع النواحى ، مما اصبح حقيقة ماثلة اليوم لكل العالم !

وهنا وقف الأستاذ/محمد الحضرى محامى المتهم وقال بكل ادب ورفق ومصانعة .

« يا سيدى الرئيس رفقا بالمتهم انه يبكى »

وكأنما كان الدجـوى قد اعـد الاجابة فاندفع مجلجلا مـدويا كالطبل والآلات الموسيقية النحاسية يرد قائلا وكأنه قد ملك الدنيا على اتساع أقطارها وارواح العباد مطويات بيمينه .

« ليبكى كما يشاء . انه لا مكان هنا ولا فى الجيش للضعفاء الذين يبكون ! »

ثم صمت قليلا وهو يدور برأسه ، وبعينيه ويشد سترته وعاد يقول .

« وايه يعنى ؟ لقد بكى محام منذ أيام هنا ! نحن لا نريد دموعا ! »

وصمت الأستاذ الحضرى فان منطق الدجوى لا يرد عليه منطق المحامى الكيس المهذب . ولقد خطر ببالى ان اقوم فأقول :

« اننى منضم لزميلى الحضرى فى الدفاع عن المتهم . واننى ارد على السيد/رئيس المحكمة بالآتى : ان استجواب المتهم جزء من التحقيق والتحقيق تجريه المحكمة لكى تتبين الحقيقة . من الذى اعطاك سلطة التعذيب بالقول الجارح ، وبالاشارة الحمقاء وبان تنسب للشرفاء تهما وضيعة . اننى احتج عليك وامتنـع موكلى عن

الرد عليك . واطلب وقف المحاكمة حتى ارفع امرك الى الأمر بالتشكيل وهو رئيس الجمهورية ولقد ادرك زميلى وصديقى الاستاذ الكبير محمد عبد الله نيتى وكأنما قرأ ما يجول فى أفكارى فامسك بذراعى بعنف وقال لى « ارجوك لا تتدخل » وقد لفتت هذه الحركة عين الدجوى فخشى ان أفلت من زمام محمد عبد الله فقال « رفعت الجلسة للاستراحة . »

وهذا الموقف يسلمنا الى مناقشة امور :

اولها : اذلال المتهم وتعذيبه اثناء المحاكمة :

لقد ابتدع جمال سالم فى المحاكمات التى راسها طريقة خطيرة ومحزنة ، وهى فى الوقت نفسه تعبر عن أحط ما وصل اليه اى قضاء فى العالم النصف متمدين — وقد تتلمذ عليه محمد فؤاد الدجوى . وان لم يتفوق عليه بل ظلت زعامة هذا النوع معقودة لجمال سالم .

نهاية جمال سالم :

لا . لن اتحدث عن السنوات الطويلة التى قضاها جمال سالم بعيدا عن السلطة هدفا لتأنيب ضميره عندما استيقظ غداة أن فقد الأمل فى الجاه والسلطان . واحس بوطأة الضربات المصميات لما صنعت يداه ، وقال لسانه ، وقادت قدماه من ايذاء واذلال وظلم فلجأ الى الله — ولا ملجأ منه الا اليه — وهو ملاذ الخائف ومجير المستجير ، يطوف بالمساجد ، ويلزم صحونها مستغفرا مستعبرا . ويلم ببيوت المتهمين المظلومين الذين عذبهم فى المحاكمات والقى بهم فى ظلمات السجون يطلب من اهلهم أن يغفروا ويسامحوا مؤملا ان يغفر الله له . ونحن لانحاول ان نتدخل فى الارادة والمشيئة الالهيتين ولنقل ما قال سيدنا المسيح « ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم » (المائدة) .

ولقد انهى الى احد الأصدقاء اخيرا ان جمال سالم قبل وفاته زار السيد/حسين الشافعى حين عين رئيسا للمحكمة التى حاكمت كبار رجال الجيش فى عهد عبد الناصر وقال له « احذر أن تفعل أفعالى فيكون مصيرك مثل مصيرى » .

ونعود الى الاذلال والتعذيب :

الأصل كما قلنا . ان الاستجواب جزء من التحقيق أو هو اجراء من اجراءاته ويجب أن يكون مظهرا للحياد ومخبرا له اى ان يكون فى نية القاضى المستجوب أن يصل الى الحق سواء كان ذلك نافعا أو ضارا بأحد الطرفين الاتهام أو الدفاع . بل المطلوب ثانيا ان يكون مع البرىء — وهو المتهم — حتى تثبت ادانته ويحكم عليه . على ذلك جميع الدساتير وآراء الفقهاء من جميع الملل والأجناس . وقد سبقهم الاسلام بآياته عن تحقيق العدالة فلقد قال عز من قال :

(ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا — اعدلوا هو اقرب للتقوى) .

وجاء فى كتاب القضاء لسيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه وارضناه ما سبق ان اثبتناه سالفا ولا نمل تكراره .

اما بعد فان القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة فافهم اذا أدلى اليك فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له وآسى بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك ، حتى لا يطمع شريف فى حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى ، واليمين على من انكر ، والصلح جائز بين المسلمين ، الا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا . ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه لرشدك ان ترجع الى الحق فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل . الفهم . الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة ثم أعرف الأشياء والأمثال وتسمى الامور بنظائرها .

وقال سيدنا على ابى طالب للأشتر النخعى ما سبق اثباته ايضا وهو :

« اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك فى نفسك ، ممن لا تضيق به الامور ، ولا تحكمه الخصوم ولا يتمادى فى الذلة والخطأ . وأصبرهم على تكشف الأمور وأصرحهم عند اتضاح الحكم . ممن لا يزد هبة اطراء ولا يستميله اغراء ، وافسح له فى البذل بما يزيل علته وتقل معه حاجته الى الناس ، واعطه من المنزله لديك ما لا يطمع فيه غيرك من خاصتك !

اما ان يبتدأ القاضى مناقشته وينتهى منها وهو يسب المتهم ويجلب عليه بالعبارات القاسية أو يسدد اليه سهاما مصمية مدمية من الكلم المقذع ، ثم يحاول ان يسخر به ويهزأ منه ويجعله سخرية الحاضرين كما فعل الدجوى فيما أسلفنا وكما فعل قبل ذلك كثيرا جمال سالم حين نادى الأستاذ بعض الحاضرين المعروفين وقال له مشيرا الى الأستاذ الكبير المستشار حسن اسماعيل الهضيبى القاضى الكامل المؤمن الصلب الصابر ، رحمة الله عليه وهو يأمره بان يسير امام المحكمة جيئة وذهابا ليتفرج عليه الحاضرون .

« بذمتك يا أستاذ فلان اتفرج وشوف على اللى كان عامل زعيم وعايز يبقى رئيس يحكم البلد ويرد الاستاذ فلان ـ ولعله نادم عليه ندما شديدا على كثرة ما يستوجب الندم منه ويضحك الحاضرون ضحكا هو البكاء على الحق والعدالة التى ذبحت فى محاكم جمال سالم و « الدجوى »

تعذيب :

ان هذا الذى يصنعه هؤلاء « القضاة » هو لون من أبشع ألوان التعذيب فان الكلمة القاتلة قد تصيب مواضع التجريح

والالم ، بأشد ما تنال الضربة أو الطعنة أو سياط الجلاد او انياب الكلاب المدربة على التعذيب .

اننى واثق أن شخصا آخر غير الهضيبى المؤمن العميق الايمان بالله ، الراضى بقضاء الله هو قضاء قد يكون خيرا ونراه شرا ـ كان يفضل ان يموت قبل ان يكون فرجة وهزاة ، وسخرية . ولو لبعض الناس من المنافقين .

لقد مر بى موقف مشابه ليلة أن قبض على (مساء ٥ سبتمبر سنة ١٩٦٦) وأنا لا أدرى سببا للقبض وقد تأرقت طول الليل ولم انم وظللت من بعد صلاة الفجر على الأذان المنطلق من مأذنة مسجد سيدتى « زينب » أدعو والح على الله فى الدعاء أن أتهم بأى شيء غير الخيانة أو التخابر مع اسرائيل فاننى لن أستطيع أن أمنع الناس من سوء الظن . وعولت على أن اترافع عن نفسى ـ اذا وجه الى هذا الاتهام ـ وان أسرد لأول مرة ماذا فعلت لبلادى وسيسمع الناس وقتها عجبا ثم قبل أن يصدر الحكم سأنتحر وأترك من ورائى قولا هو اننى لن أسمح للجبناء الكاذبين أن يصدروا حكما على بخيانة بلدى ولو كان لى أمل فى البراءة . نعم لقد صممت على ان امنعهم من الحكم على !

انظروا كيف حلا الموت دون الصاق تهمة ظالمة !

* * *

وبهذه المناسبة أقول أن أربع دوائر كانت تنظر قضايا الاخوان المسلمين فى سنة ١٩٦٦ . الأولى يرأسها الدجوى والثلاث محاكم الأخرى يرأسها المرحوم اللواء على جمال الدين رحمة الله عليه واللواء طلعت حسن وآخر ..

وانعقدت الدوائر الثلاث واستمرت وانتهت وأصدرت أحكامها ولم تقع فيها كلها كلمة واحدة نابية ، ولا حدثت مشادة بين احد

من المحامين ولا من المتهمين وبين أحد رؤساء هذه المحاكم . حقيقة ان العدل الذى ننشده لم يتحقق الا فى دائرة واحدة كما سيرد فيما بعد . وهى التى كان يرأسها المرحوم اللواء على جمال الدين .
ولكن لا يمكن أن تمر هذه الصفحات دون تسجيل ان هذه الدوائر قد خلت فعلا من « التعـذيب » القـاسى من الكلم أو البذىء من العبارات ، أو بالسخرية من احد المتهمين .

اننى انصافا وعدلا احيى هؤلاء الثلاثة الكرام ومن كان معهم وان انسى لا انسى قضية شاب سيرد ذكرها فيما يلى وكانت امام الدائرة التى كان يراسها اللواء طلعت حسن .

كنت قرات وانا أترافع هذه العبارة من الملف صادرة من وكيل النيابة المحقق وسأذكر اسمه فى حينه « ملحوظة » **« وهنا قـال المتهم انه عذب فى السجن الحربى وضرب ونزعت اظافر يديه وارانا المتهم اصابعه وقد ظهرت مواضع نزع الأظافر ــ تمت الملحوظة ».**

وقلت انا « لا يا سيدى النائب لم تتم الملحوظة ــ فان الدفاع يحييك ويحى فيك شجاعتك ويحيى فيك ضـــميرك الحى الذى لم يغفل عن اثبات جرائم الطغاة ــ وسيحييك معى غدا التاريخ الذى لا ينسى » .

وصمتت القاعة . ثم استمررت فى مرافعتى ولو كنت قلت هذا القول أمام الدجوى لقامت بيننا معركة الله أعلم بمداها .

ترفيـــه : . . . .

كان أحد المتهمين اسمه (....) وهو موظف فى محـافظة الاسكندرية يقوم بعمل كتابى ، ومنسوب اليه انه كان يشترك فى كتابة المنشـــور مع عبد الرحمن مخيون . ثم يعطيــه الأخير الى عسكرى لكتابته على الآلة الكاتبة . وجاء دوره فى المناقشة . وبدا يراوغ ويخادع كأذكى ما يكون المصرى الذى يتباله حتى يظن انه

ابله ، ويتحايل حتى يعتقد انه احمق ، ويتصامم ، ويدعى عـدم الفهم ، أى كما يقول المثل البلدى (يسوق الهبالة على الشيطنة).

ولكن لا شك فى انه كان ذكيا ذكاء خارقا ، وكان خفيف الظل كأهل مصر الظرفاء الذين ما أن تسمع صوتهم حتى تنفرج شفتاك من الضحك قبل ان تتبين ما يقول . وبدأت القاعة تضحك . وكان الدجوى يتميز غيظا ولكن المتهم كان قـد « سرق الكاميرا » كما يقولون من الدجوى وأصبح على الدجوى اما أن يبطش بانسان يستظرفه كل من فى الجلسة فيكون سخيفا واما ان يكون لبقا .

وكان بالفعل مضطرا الى ان يكون لبقا فابتسم وقال :

« سأنهى مناقشتك لانك ثعلب ماكر . وانت على اى حال معترف ولم تنقض اعترافك » .

وهنا انبريت أقول :

« هذا حكم مسبق يا سيادة الرئيس فكل المتهمين لهم أوراق سميت « اقرارات » فهل معنى ذلك ان الحكم قد صدر ؟ ! »

وللمرة الثانية تلقى اللكمة ولكنه تحاشاها بظرف وضحك فقد قال :

« أنا باخصه زى ما قعد يحاورنا . ! » .

« ورفع الجلسة » .

وطلبنى فى غرفة المداولة . واستقبلنى هاشا باشا يكاد يسيل رقة ونعومة وسألنى بتودد وتعاطف :

« اين كتبك التى وعدتنى باهدائها لى . كل واحد القاه يمدح فيهـا » .

ووعدته معتذرا ولكننى كنت اعرف أن ليس هذا هو الغاية من اللقاء اى لم يكن هذا كما تقول « مربط الفرس » . وظل يتكلم وينصرف الأعضاء مستأذنين وكأنه المارد وهم الأقزام .

وهنا أقف لحظة لاستطرد استطرادا ذا نفع فقد رأيت عهدين للقضاء العسكرى العهد السابق الى قيام الثورة وكان تشكيل المحاكم العسكرية يتم على أساس اختيار الضباط الاكفاء ، الشرفاء . الأذكياء . فكنت ترى وتسمع منهم ما يسر الخاطر . ولطالما خرجت بصداقات متينة كريمة دامت الى آخر العمر وكنت الاحظ أن أقل الاعضاء فى هيئة المحكمة يرى نفسه فى مساحة ومقاس وسلطان ليس فقط رئيس المحكمة ولكن راسه براس وزير الحربية . ولكن فى ادب وتوقير واحترام . ولم يكن يتورع الضابط برتبة (الصاغ) الرائد ان يخالف الرئيس برتبة (اللواء) فى أمر من أمور الدعوى أو دليل من أدلتها .

ولكن للأسف انه منذ قيام الثورة رأينا رئيسا منتقى من مجلس قيادة الثورة ! أو من الرئيس السابق **جمال عبد الناصر** ثم نرى أصفارا عن يمينه وعن يساره . **وكان الاختيار دائما** يبنى على ان يكون سفاحا ، صارما لا تتوفر فيه صفات القضاء . وقد حمل كل السلطات والسلطان ، ويعلم الأعضاء من هذا السلطان انهم اما ان يتكلموا خيرا والخير هنا هو الموافقة على كل تصرف أو قول يصدران من الرئيس — واما ان يصمتوا لا الصمت البليغ ، ولكن يشترط ان يكون صمت الموافق المتبسم حين يتبسم الرئيس ويعبس حين يغضب الرئيس .

وانني أؤكد انني كثيرا ما لاحظت ان بعض اعضاء هذه المحاكم كان يختلس النظر الى وجه الرئيس حينما كان وضع كل منهما لا يسمح بالرؤية بالميل براسه نحو وجهه لكى يستبين حالة الرئيس النفسية ثم يلون وجهه بانفعال الرئيس .

هذا الذى نرويه ليس كلاما تافها ولا مساقا جزافا للتطويل ولكنه من صميم موضوعنا .

وموضوعنا هو أن هذا القضاء الاستثنائى مجرد قيامه يعتبر رغبة فى عدم استقامة العدالة على جادة الحق ، ولا ابالغ فاقول

انه كان المقصود الظلم . فقد لا يكون الظلم غاية مقصودة . ولكن الاجراء يؤدى الى الظلم . وهذا ما وقع فعلا . ولنتساءل سؤالا هاما لم يوجهه احد منذ ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ الى الآن :

« لماذا لم يترك للقضاء العادى — محاكم الجنايات — الفصل فى جميع القضايا الجنائية وما اكثرها منذ ذلك التاريخ ؟ » .

ان القضاء المصرى قضاء يفخر به على مدى الأزمان منذ قيامه سنة ١٨٧٩ الى اليوم .

ولا نقول هذا اسرافا فى القول أو اندفاعا حماسيا فى سياق الجدل . ولكننا نقرر حقيقة لا يجادل فيها او يناقضها الا مكابر او جاهل .

انني أقررها وأثبتها بعد خمسة واربعين عاما من العمل امام القضاء يوما بعد يوم دون انقطاع الا حين كانت تواريني زنزانة سجن او اعتقال !

المنجة والدوم :

واذكر هنا وبهذا العنوان الغريب الذى قد يوحى للقارىء بالظن فى جنون الكاتب — أذكر انني كنت اتمشى انا وزميلى وصديقى **محمد عبد الله المحامى والفقيه المصرى وهو قارىء وفقيه واديب وعالم وصاحب عقلية منتجة** وكنا نتحدث فى هذا الموضوع وكنا نؤدى واجبنا امام محكمة الدجوى . وكانت خطواتنا تتزن وحدها على أرض متربة فى ظلال اشجار الصفصاف العجوز الباسقة الضخمة التى تبدوا رغم قدم العهد عليها شابة قوية . وكنا منفردين والثالث الله فقلت لمحمد عبد الله :

« ان هذا النوع من القضاء مثله مثل « الدوم » » .

ونظر الى وقد فهم معنى التشبيه ولكننى زدت قائلا :

« انه لا يكسر ولا يؤكل ، ولا يرطب ، ولا تجدى فيه جميع التفاعلات ومع ذلك فهو موجود . ويباع . وهناك من يشتريه » .

ورد محمد بلهجته الفلسفية الساخرة :

« اما قضاؤنا العادى فهو كالمنجة » » .

ونظر مركزا عينيه فى عينى وقد تعود أن يفهمنى وافهمه فى احاديث طويلة طالما تبادلناها فى شتى مراحل العلم ، وبينى وبينه انجذاب كمـا هو كائن بينى وبين زملاء أعزاء هم رفاق رحلة العمر كمحمد عبد السلام — النائب العام السابق — وسعيد ناصر وزهير جرانه وعبد الفتاح حسن ومحمود محمد محمود وحسن الوكيل وحسن عارف وتوفيق الخشن ومحمد البكرى . وغيرهم من دفعتى .

ولكنه عاد وقال :

« منجة .. قد تكون غالية — رخيصة — حلوة .. نص نص .. حتى فاسدة .. ولكنها منجة ! » .

نعم ان قضاءنا بعد تجوبة ربع قرن امام المحاكم الاستثنائية هو الملجأ الوحيد للمظلومين ولأصحاب الحقوق .

اما هذا القضاء الاستثنائى فهو كائن ان لم يكن المقصود به ايقاع الظلم وانزال العسف فانه الطريق اليه .

كثرة القضـايا :

ويسلمنا هذا الحديث — أو هذا الاستطراد الذى قد يظن القارىء انه بعيد عن الموضوع وهو فى الواقع الذى لامرية فيه انه من صميم القضية .

ان العشرين عاما التى مضت زخرت بمحاكمات لم تر مصر فى حياتها اكثر منها واوفر من عددها وكلها من نوع واحد ، وبتهم ليست متشابهة ولكنها لا تتحد فى النوع فقط وانما تتحد فى النص .

محاولة قلب نظام الحكم .

الاتفاق الجنائى على قتل رئيس الجمهورية ..

الاتفاق الجنائى على قتل فلان وفلان من رجال الحكم ..

شروع فى قتل رئيس الجمهورية .

الاتصال بدولة أجنبية .

حول هذه الموضوعات او هـــذه التهم دار اتهام آلاف من المصريين وزج بهم فى السجون ، وعقدت المحاكم العسكرية او محاكم امن الدولة او محاكم الشعب والغدر والثورة ... الى آخر هـذه المسميات التى كان المقصود بها توقيع العقوبة الرادعة القاسية التى قد تكون عبرة لأفراد الشعب حتى يدخلوا الجحور .

هذه الظاهرة التى لازمت بلادنا العزيزة التى نشدت الأمان والاطمئنان طول عمرها المديد ... آلاف السنين . تبدوا واضحة الدلالة على النظام نفسه .

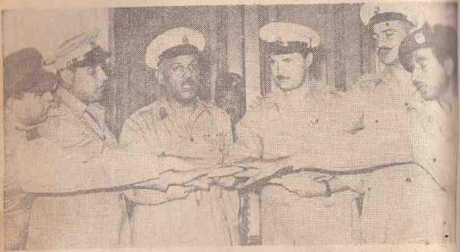
هل كان المقصود الظلم ؟

كان القول الذى اثبتناه فيما سلف من أن الذين قارفوا القبض على الابرياء الذين تميزوا برفع أصواتهم بعدم الرضاء عن الحاكم او بالهمس بما يؤمنون به — واختراع التهم وخلق المحققين خربى الذمة ، ورشوة الشهود بشتى انواع الرشـوة وصـنع الرجال الذين يحسنون التعذيب والايذاء كانما يقومون بشفاء ثار قديم لم تشكيل محاكم مخصوصة . وسميت محاكم مخصوصة !

وربما لم يكن مقصد بعض الناس ان يحققوا ظلما . ولكنهم فعلوا الظلم — وليس بحسن نية بل انهم كانوا يعرفون انه الظلم . لقد كانوا يفاضلون بين ان يقتلوا او يقتلوا . ان يمحقوا او يسحقوهم ،

كان عليهم ان يختاروا بين أن يثبتوا فى مراكز الجاه والسلطة والمال .. المال الذى لا حدود له ولا تعب فى كسبه . المال الذى يحقق لهم كل الامانى ، ويشبع فيهم كل الرغبات وبين ان يجعلوا النيل مقبرة لجميع ابنائه !

لقد ذاقوا العز ، وحلا لهم طيب العيش ، ونعموا بالسلطان فرضوا به دون رضاء الشعب او رضاء الله . وفى سبيل الحفاظ على هذا النعيم هان عليهم أن يجعلوا مصر كلها بل الشرق جهنما وسعيرا .



عودة إلى المحاكمة

أخذ الجندى - النفر - المتهم بانه اشترك بطريق الاتفاق والمساعدة مع العقيد عبد الرحمن مخيون فى محاولة قلب نظام الحكم وذلك بأن قام بكتابة المنشورات التى كان يكتبها عبد الرحمن مخيون والأستاذ ...

ويوزعها مع باقى المتهمين وهى تحض على كراهية نظام الحكم وكراهية رئيس الجمهورية .. الخ .

كان هذا الجندى متهما بكتابة المنشورات على الآلة الكاتبة بالاستنسل وطبعها على الرونيو .

وقال الجندى :

« ان العقيد عبد الرحمن مخيون وهو رئيس كلفنى بأن أطبع هذه المنشورات فاطعت امره » .

وهنا انفجر الدجوى وقد أحس ان دفاع الجندى توى اذ كيف يعصى امر رئيسه وقد كان اول درس تعلمه فى الجيش أن الجندية طاعة ونظام .

وقال الدجوى صارخا :

« ما الفرق بينك وبين العقيد أو العميد أو اللواء ...

وقلت بصوت خفيض لزملائى « والفريق » وسمعها الدجوى ولم يكن قد أصبح فريقا بعد . فنظر الى بشراسة وقال :

« الفــريق » .

وكدت أقول « والمشير » ولكننى صمت لكيلا ازيد من اعدائى .

ورد الجندى قائلا :

« فرق كبير » .

وزاد هياج الدجوى وصاح :

« ابدا .. لا فرق !. »

ونظرا الى امين سر الجلسة وقال :

« قف . لاتدون ! درس ! » .

ونظر الى الجندى وهو يلقى درسا فى موضوع عجيب وهــو الفرق بين الجندى والضباط من ملازم الى فريق . وطبعــا لم يستطع أن تشمل المقارنة رتبة المشير ! !

قــال الدجوى :

« ليس هناك فرق بين الجندى وبين الضباط مهما علوا » .

« هذا يلبس حلة عسكرية . وهذا يلبس مثلها » .

هذا يمسك سلاحه وهذا أيضا يمسك سلاحه .

هذا يرتمى على الأرض مصوبا ، او زاحفا ــ وهذا ايضا يرقد ويصوب ويزحف .

هذا وذاك فى وسط المعركة يأكلان نفس الطعام . ويغترفان من بئر او ترعة او مستنقع حفنة ماء وكل يطفىء بها ظمأه .

وينهال الرصاص من العدو فيتلقاه صدر العسكرى كما يتلقاه صدر الضابط أو يسيل فى ارض المعركة دم الجندى ممتزجا بدم الضابط .

وقاطعته انا بغير داع ولكن لكى أضيع غروره بهذه الخطابة ..

« هذا فى وقت المعركة . انما فى وقت السلم هل يستويان ؟ هل يصدر الجندى الأمر للضابط ؟ هل يؤدب الجندى الضابط ..

وضغط الدجوى على فكه وصر على اسنانه وقال :

« هذه شؤون عسكرية لا دخل للمدنيين فيها ونحن نشرع لرجال العسكرية » .

واجبته :

« استميح المحكمة عذرا اذا سألتها أن ترفع الجلسة لكى انتهى اليها بقول اريد أن انهيه اليها » .

وكان قد فهم اننى اريد أن اقول له ان وقتنا لانريد أن نضيعه فى مثل هذا الكلام الهراء . فرد قائلا وهو فى حالة غضب شديد من اضاعة فرصة الخطابة عليه .

« قل ما تشاء فى الجلسة العلنية » .

فقلت له بهدوء :

« حبا وكرامة فليس احب الينا من القول جهرا وعلى سمع العالم » .

سيدى الرئيس :

« ان موكلى وهو المتهم الأول برىء ... » .

وهنا قاطعنى باسما متشفيا ساخرا :

« تقصد ان تقول « غير مذنب » » .

وهذا هو التعبير الذى يعبر به القانون العسكرى عن البراءة اذ يقول « وتصدر المحكمة حكمها بأن المتهم غير مذنب او بالعقوبات الآتية ... الخ » .

وكان يقصد بهذه المقاطعة ان ينال منى بلكمة قاضية ويكشف جهلى بالقانون العسكرى ولكننى قلت :

« اننى مصمم على القول بأن موكلى برىء ولا اقول « غير مذنب» وقاطعنى بحدة .

« وما الفرق بين الكلمتين ؟ » .

« ورددت بهدوء » .

« فرق كبير » .

فقــال ساخرا :

« هل يسمح السيد الأستاذ ان يبين لنا الفرق » .

وقلت له :

« هل تسمح لى بساعة من الزمن » .

ورد قائلا :

« بل الى المغرب » .

« وكنا فى الساعة الثانية عشر ظهرا » .

وبدات اقول وكانت المرة الأولى التى اتعرض فيها لبحث الفرق بين الوصفين .

« ان تعبير غير مذنب تعبير مستعار من اللغة الانجليزية وذلك حين وضع سردار الجيش لورد بيرنج او المعروف باسم كتشنر فى سنة ١٨٩٨ . وترجمته بالانجليزية not guilty ولا يزال يستعمله القضاء الانجليزى والأمريكى فى قرار المحلفين .

اما برىء فهو تعبير عربى صميم وهو واسع المعنى ويدل دلالة قاطعة على ان المتهم لم يقع منه عمل مجرم او مؤثم وقد سميت به سورة من سور القرآن وهى سورة براءة وبدأت اقرأ .

« براءة من الله ورسوله » .

وهنا ازداد غيظا وكان يحسب اننى لن احير قولا فى الفرقَ . وبدا يفكر وقلت كل ما خطر ببالى من آيات قرآنية فيها كلمة برىء وهى :

بسم الله الرحمن الرحيم

(لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبراه الله مما قالوا) .

(قل انما هو اله واحد واننى برىء مما تشركون) .

(ان الله برىء من المشركين ورسوله) .

(ومن يكسب خطيئة او اثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا واثما مبينا) .

صدق الله العظيم

ثم قلت مسترسلا :

اما من الناحية العلمية الفنية technique فغير مذنب معناه **ان الأدلة غير متوافرة او ان القانون لم يؤثمه بالرغم من انه بالذوق**

العام أو العرف يعتبر جريمة . أو ان الجريمة ينقصها ركن من الاركان أو . .

وهنا لم يطق الدجوى صبرا وصار شخصا آخر وتطلق وجهه وابتسم وقال : « نستأذن الأستاذ فى رفع الجلسة الى باكر »

وكان الوقت لم يصل بعد الى الواحدة وكان الدجوى لايسمح بانتهاء الجلسة قبل الثانية بعد الظهر . فرددت قائلا :

« وان شاء الله سأتمم « الدرس » غدا » .

وكنت اقصد الرد على كلمة « درس » ! التى قالها حين كان يناقش المتهم الجندى .

ورفعت الجلسة :

وفى اليوم التالى كنت انوى ان اقف متظاهرا بتكملة الدرس وانا واثق انه سيمنعنى ولكننى فوجئت بأحد الضباط يطلب منى مقابلة المحكمة .

ودخلت غرفة المداولة وقابلنى الدجوى بابتسامة عريضة وكاد ان يأخذنى بالأحضان وقال :

« انا اهنئك على هذا الاستعداد الفورى للمحاضرة . . وارجو ان نعود بعد انتهاء المحاكمة لبحث هذا الموضوع الشيق » .

وفهمت انه يرجونى ان اكف عن المعابثة ورضيت فى قرارة نفسى باننى هزمته .

وكان قد استقر فى اعماقى ان هذا « المتعملق » الذى يمثل الطغيان فى منصة القضاء . والطغيان ظلم وهو بغيض فى اى مكان ولكنه فى دار الحق ، دار القضاء ملعون مذؤوم مدحور .

درس من جندى :

وشاء الله أن يتلقى لطمة سريعة وفى هدوء ومن شفتى جندى « نفر » .

انعقدت الجلسة وعاد الدجوى الى مناقشة المتهم الجندى فسأله :

« اذا كنت — وانت مخطىء — جاريت المتهم عبد الرحمن مخيون فى كتابة المنشورات على الآلة الكاتبة فهل ادركت ما فى هذه المنشورات من عبارات » .

وتردد الجندى قليلا ثم رد قائلا :

« فى بعض الأحيان كنت اقرأ فقرات منها » .

« هل فهمت هذه الفقرات » .

وقال « نعم » .

« ماذا فهمت » .

« انها ضد الرئيس عبد الناصر » .

وابتسم الدجوى وقال :

« ما هى وظيفة السيد/الرئيس جمال عبد الناصر ؟

«رئيس الجمهورية .

«رئيس ؟

وسكت الجندى ورد الدجوى :

« والرئيس الأعلى للقوات المسلحة .

« نعـم » .

« اذن لماذا لم تبلغ عن هذه المنشورات التى تطعن فى رئيسك الاعلا .

وهنا رد الجندى :

« كنت بين نارين ان اغدر برئيسى واخون الأمانة وبين أن اصمت وان اتعرض للعقوبة .

وكادت تطفر الدموع من عيوننا جميعا وانتهت مناقشة المتهمين بعد أن كال الدجوى لهم الاهانات والغمزات واصطنع جبروت وظيفته لاذلال قوم خلقهم الله احرارا فاستعبدهم الاذلاء الجبناء ونسى الحكمة ذات النصيحة السامية او الحديث النبوى الشريف القائل :

« اذا دعتك قدرتك على ظلم الناس فتذكر قدرة الله عليك » .

وجاء دور الشهود .

وكان هؤلاء الشهود يتميزون بشخصيتين :

الشخصية الأولى زميل ضابط تربى مع امين مخيون فى الدراسة ثم فى الكلية الحربية ثم فى صفوف الجيش ـ معا ـ دائما ـ ليلا ونهارا ـ الى حد ان خطب له آل مخيون عروسة وأقرضوه مهرها . ووقفوا بجانبه فى نزاعاته معها ... واخيرا ظهر ان المخابرات العسكرية كانت قد شكت فى أن يكون مصدر المنشورات هو عبد الرحمن مخيون أو ابلغت بذلك فجندت هذا الضابط الشاب ـ ويعترف هو ـ بأنه قصد العودة الى معاشرة امين وفى منزلهم وظل يستدرج امينا بحكم الصداقة المتينة حتى دعاه بكل بساطة ـ الى الانضمام الى جمعيتهم وانبأه بأن أخاه عبد الرحمن يصدر منشورات . وفورا أبلغ الضابط النبيل المخابرات ووضع يدها الغليظة وحبل المشنقة الاكثر غلظة فى رقبتى صديقيه !

الشاهد المسلم :

هو صيدلى ، وكان منتميا لجماعة الاخوان المسلمين . وسجن.

ولقد قرات أقواله فى الأوراق الصامتة . التى كثيرا مايجدها المحامى الذى يقراها بفؤاده لا بعينيه باكية ، وحزينة ، كحزن المروءة فى قول الشاعر .

مررت على المروءة وهى تبكى — فقلت : علام تنتحب الفتاة ؟
فقالت : كيف لا أبكى وأهلى — جميعا دون خلق الله ماتوا !

قرات اقواله ووضح منها انه تعرف **بعبد الرحمن مخيون** فى صيدلية ، وتعارفا واتضح لعبد الرحمن انه كان من الذين حكم عليهم بالسجن فى قضية المنشية وانه سجن مع ابن شقيقة **عبد الرحمن وهو الأستاذ صالح أبو رقيق** وقضى معه سنى السجن كلها فالتمس له عبد الرحمن وسأله ان يتقابلا . فلما تقابلا افصح له عبد الرحمن عما يقوم به وما كشف من مظالم بعض الحاكمين وانه قد آثر ان يعمل ضده بعد أن كان يعمل معه قبل استفحال شره ، وعرج على ما وقع للاخوان المسلمين ودمائهم التى اريقت وشبابهم وشيوخهم الذين عذبوا .

ووافق الصيدلى الصديق زميل المحنة وصاحب السجن على الاشتراك فى الجماعة ثم يقول : « ومن مكان الاجتماع قصدت مبنى المباحث العامة بالاسكندرية وابلغت المسئولين عما جرى بينى وبين عبد الرحمن مخيون » .

وساءلت نفسى : « لم يفعل مثل هذا الرجل مثل هذا الصنيع الشنيع ؟ » .

وبكت السطور أمام عين فؤادى فى ملف الدعوى . ولم ارد على سؤالى ولم اجد أحدا يرد . ولا تيسر لى رد الى الآن . والى الغد .

ولذلك فاننى بمجرد ان سمح لى الدجوى بمناقشته بادرت فسألته :

« ما ديانتك يا دكتور ؟ » .

« مسلم » .

« هل كنت منتميا الى جماعة الاخوان المسلمين » .

« نعم » .

هل سجنت بعد حادث المنشية .

« نعم » .

هل سمعت قول القائل « الدين النصيحة » ؟

« نعم » .

« اذن لم لم تنصح ايها المسلم اخاك المسلم المتهم عبد الرحمن مخيون بان ينتهى عن غيه ؟ »

« لقد وجدته مصمما ؟ »

« وهل راجعته ام وافقت مباشرة ؟ »

« لا لم أراجعه بل وافقت تخلصا من الموقف » .

« لا زلت أسألك لماذا لم تنصحه ؟ »

وصمت . فعدت أسأله :

« ولم لم تهدده بابلاغ البوليس اذا لم يذعن لنصيحتك ؟ »
صمت .

وهنا اندفع الدجوى يقاطعنى بصراخ وصياح وكأنما ثارت الدنيا وزلزلت زلزالها قائلا « لاتحرج الشاهد . اجعل اسئلتك فقط فى وقائع الدعوى » .

وعدت أسأل :

« الا تعتقد انك لو فعلت كنت ماجورا من الله ولم تكن هناك قضية ؟ » .

وزمجر الدجوى وقال كلاما لم أبال به ولا أصغيت اليه فقد رحت أسأل :

« الا تؤمن بأن الله يغفر الذنوب جميعا الا الشرك بالله والاضرار بالناس ؟ » .

وزاد صياح الدجوى واستمررت فى سؤالى :

«الم تسمع قول الله تعالى « ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا » .

« الم تسمع قوله تعالي « أيحب احدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه » .

« انك ستجد ضحيتك هذه ايها المسلم شاخصة اليك بانظارها طوال عمرك تسألك :

« ماذا فعلت يا قابيل بأخيك هابيل ؟ « وستحس مرارة لحم اخيك فى شفتيك ماحييت » !

وضاعت العبارات فى الضجة التى صدرت اصواتها من رئيس المحكمة .. من فمه ، من رأسه ، من يديه ، من عينيه ، من شعر رأسه .. ومن صوتى الذى كنت أرفع طبقاته حتى تعلو على صوت الدجوى !

ورفعت الجلسة . وانتهت مناقشة الشاهد .

وبقيت قضية هامة خطيرة .

الملقنون :

هى قضية هؤلاء الملقنين .

وهى قضية ضخمة تعتبر جزءا من تاريخ مصر .

ومن الخير ان نثبت انباء هؤلاء عبرة لاهل الزمان القادم فان هذا التاريخ العظيم كما يضم امناء وشهداء واهل تضحية وفداء يضم اسماء خونة ، وآكلة لحوم اهليهم ومواطنيهم !

سنة ١٩١٩ :

قرأت فى كتاب عن مصر ولعل مؤلفه كان مندوبا ساميا فى مصر قولا اثارنى ولا يزال ، وسيظل مثيرا لكل مصرى ينتسب الى الاجيال الماضية أو الجيل الحاضر .

قال : (لم تحكم المحاكم العسكرية الانجليزية فى سنة ١٩١٩ على مصرى الا بشهادة مصرى) !

وهذا غير صحيح فى الواقع ولكنه أصبح صحيحا فى ازمان لاحقة .

ان الخوف هو المسبب لكل البلايا ، والمحطم لكل العناصر الأولية التى أرادها الله فى أحسن تقويم .

الخوف من الموت ، الخوف من الفقر ، ونسى الخائفون ان الله قد قدر لكل مخلوق يوم مولده ويوم وفاته . وقدر لكل الناس اقواتها فلن يموت انسان الا وقد استوفى عمره ورزقه . ونسوا قول القائل « الناس من خوف الموت فى موت ومن خوف الفقر فى فقر ».

وذكروا الشيطان فانساهم صوت الله ، فتمثل لهم الفقر ، والموت ، ولو ذكروا الله لوجدوا عند الله رضاء ، واستكفاء ، وجلدا وشجاعة فى لقاء أشد الكروب .

ولقد قال شاكسبير :**« ان الشجاع يموت مرة واحدة أما الجبان فيموت كل يوم مرة »** .

وقديما غلب العرب الحفاة الرعاة جيش الروم وهو يلبس الدروع والخوذات والزرد والقبعات الحديدية . فذهل ملك الروم وسأل القائد :

« كيف يغلبكم هؤلاء الجوعى الحفاة العراة ؟ »

فأجابه القائد :

« كيف نغلب قوما يحبون الموت ؟ » .

نعم ان هذا الشعب الأصيل عندما يحب الموت يوهب له النصر كما حدث فى أيام صلاح الدين ومحمد على وثورة ١٩ و ٦ اكتوبر سنة ١٩٧٣ .

المبلغون



قبض الانجليز فى ١٩٢٠ على عبد الرحمن بك فهمى رئيس لجنة الوفد المركزية بالقاهرة .

ولقد كان عبد الرحمن فهمى مديرا لمديرية بنى سويف ثم وكيلا لوزارة الداخلية . وكان أصلا من ضباط الجيش المصرى بالسودان وهو عم الدكتور أحمد ماهر باشا وعلى ماهر باشا .

ولا شك ان هناك اسبابا هامة وخطيرة لاختياره رئيسا للجنة الوفد المركزية أثناء غياب الزعيم الخالد سعد زغلول لكى يكون على راس الحركة الوطنية فى مصر وواسطتها بين الشعب وبين الزعيم سواء فى مكان اعتقاله فى مالطة أو جبل طارق . أو فى باريس وهو يسعى مكافحا لدخول مؤتمر الصلح المنعقد فيها وقتئذ .

لا جدال فى انه كان من أوائل الذين التفوا حول سعد زغلول وساندوه فى التقدم بطلب الاستقلال . ولا شك فى ان سعد زغلول بخبرته الطويلة بالرجال وبذكائه الفطرى قد اختاره كما اختار

رجال الوفد لتحمل مسئولية كبرى وتأدية واجب خطير والتعرض لمخاطر فرض سعد انها تجده رجلا صلبا ومكافحا لا تلين قناته ولا يغمز جانبه ، ويقابل الردى بابتسامة وهتاف « نموت وتحيا مصر » وقد كشفت الرسائل التى كان يتبادلها سعد مع عبد الرحمن فهمى عن أنه كان موضع ثقة الزعيم . ومأمن أسرار الوفد . ومنفذ تخطيطاته ومشروعاته .. وكان الى ذلك كله رئيس الجهاز السرى فى الحركة الزغلولية . وفجأة قبض الانجليز على **عبد الرحمن فهمى** ومعه نخبة من شباب مصر الذين كانوا شعلة الحماسة الوطنية فى ذلك الوقت . واصبح لهم فيما بعد ادوار هامة ادوها فى تاريخ الجهاد الوطنى على أتم ما يكون اداء الواجب . منهم ابراهيم عبد الهادى ومحمد عبد الرحمن الجديلى وكامل جرجس عبد الشهيد وتوفيق صليب وغيرهم بتهمة تاليف جمعية اسمها جمعية اليد السوداء لقتل الانجليز ، والقاء القنابل وتوزيع المنشورات . وكانت المنشورات هى صحافة الثورة والطريق الوحيد للاعلام بها . وتوجيه الشعب الى السبل والخطط التى ترسمها قيادة الثورة . وكانت الصحف المصرية كلها صحافة وطنية ما عدا صحيفة المقطم وان كانت لم تجاهر ابدا بنزعة عدائية للثورة بل كانت تنشر اخبارها بغير تحمس ولا دعوة الى ما يمس الانجليز .

ولكن الرقابة كانت بالمرصاد . وللانصاف نقول ان ٧٠٪ من المقالات الملتهبة كانت تنشر وكان يجيز الرقيب كثيرا منها . وكذلك بيانات الوفد وخطب سعد زغلول وزملائه .

واهتم الرأى العام المصرى بالغ الاهتمام بقضية عبد الرحمن فهمى الى حد انها اصبحت مساوية فى قيمتها للثورة نفسها لانها كانت جزءا منها . فان المتهمين فيها من أعز ابناء الثورة .

وبلغت أهميتها الى حد أن وكل الوفد للدفاع عن المتهمين امام المحكمة العسكرية الانجليزية اثنين من اشهر محامى لندن احدهما المحامى متشيل انسى .

وقد حضرا فعلا وقاما بواجبهما خير قيام .

أما الذى كان مدويا من جوانب هذه القضية .

الأمر الذى هان فى جنبه ان يعدم هؤلاء المتهمون الأعزاء او لا يعدموا ، فما كانت نفس وقتئذ لتغلو ما دامت تبذل فى سبيل الحرية ومن اجل مجد البلاد .

ذلك الأمر هو ان اكتشاف الانجليز لهذه الجمعية كان عن طريق طالب ازهرى اسمه عبد الظاهر السمالوطى . وكان شابا ثوريا يبدى حماسة وفدائية لفتت الأنظار اليه فلما اراد ان ينضم الى شعبة من شعب الجمعية لم يتردد القائمون عليها فى ضمه وكان يعتبر من احق الأعضاء بالتقدير والفخر وقيل انه دس بواسطة البوليس السياسى وبترشيح احد الباشوات ذوى النفوذ عليه . وانه قبض خمسة آلاف جنيه ثمنا للايقاع بالأبطال العظام !

ولقد تعقبه جماعة من الشباب فى سنتى ١٩٢٥ ، ١٩٢٦ . وكان يتنقل من بلد الى بلد . وقد كنت انا احد الذين وكل اليهم تعقبه فى بلدته ــ سمالوط وفى القاهرة وخاصة فى حى شبرا . وحينما ظفرنا بالنبأ اليقين بانه يعمل مفتشا فى الترام وقعت حادثة السردار ثم قبض على ماهر والنقراشى بتهمة الاغتيالات السياسية فوقف تعقبه .

كانت ضربة قاسية لآمال الشعب حين ظهر هذا الخائن . ولا اكون مغاليا ان قلت انه كان حديث كل لسان فى مصر من اقصاها الى ادناها ، وان آلافا كانوا يترصدون له لقتله لولا ان البوليس كان يفرض عليه حماية قوية ويهربه من مكان لمكان .

قضايا الاغتيالات بين ١٩٢٠ ـ ١٩٢٥ :

حدثت حوادث اغتيالات متعددة فى هذه الفترة . ولم يستطع البوليس ان يصل الى احد من فاعليها ولا تمكن من ايجاد مبلغ عنهم ، حتى انهم اخترعوا متهمين هم خليـل نظير وكان شـاعرا وزجالا مشهورا ونظم كثيرا من الأشعار والأزجال الوطنية والأستاذ سيد محمد وكان صاحب ومدير مدرسة « الكلية بالسـيدة زينب » . وكان قد خصص فناء المدرسـة للمحاضرات والخطب الوطنيـة والأستاذ محمد الشافعى البنا وكان طالبا بمدرسة القضاء الشرعى وحكم باعدام خليل نظير والحكم بالأشغال الشاقة المؤبدة على باقى المتهمين .

وقد ظهر فى قضـية ماهر والنقراشى ان هؤلاء المتهمين الذى حكم عليهم كانوا ابرياء وان اعضـاء جمعية الاغتيـالات هم الذين ارتكبوا هذه الحوادث .

حادث السردار :

كانت حادثة مقتل السردار اخطر جريمة وقعت فى مصر فى القرن العشرين فان « سيرلى ستاك » كان سردار الجيش المصرى وحاكم السـودان ومن أعظم الرجال العسكريين فى الجيش البريطانى وفى وزارة الخارجية البريطانية .

وقد كانت وقعت عقب انقطاع المفاوضات بين سـعد زغلول باشا زعيم مصر ورئيس وزرائها وبين مستر رمزى ماكدونلد زعيم حزب العمال الذى كان قد نجح ١٩٢٤ لأول مرة فى تاريخ بريطانيا فى الانتخابات العامة وفاز بأغلبية اهلته لتأليف الوزارة . وكان المصريون يعلقون آمالا كبـارا على تولى حزب العمـال الحكم فى

بريطانيـا ، وعلى وجود رمزى ماكدونلد صـديق مصر على ر[illegible] الحزب والوزارة وهو الذى مر بها وتقابل مع سعد زغلول وقال كلمته المشهورة « ان القضية المصرية تحل فى فنجان شاى » اى فى مدة ساعة !

فلما ظهر ان حزب العمال يمثل الروح الاستعمارية مثله مثل حزب المحافظين واعلن سعد زغلول فشـل المفاوضات بسبب ان العمال متمسكون بالمصالح البريطانية فى القناة والسودان كحزب المحافظين وغلاة المستعمرين استولى شعور قاتم مظلم على النفوس ليس هو اليأس ولكن خيبة الأمل فى صديق كنا نؤمل فيه كثيرا . وقد كان المجاهدون فى ذلك الوقت اذا تصدت لهم عقبة وثبوا لكى يعبروها او يحطموها . واذا رانت على قلوبهم غشاوة من الضيق نفسوا عن انفسهم بما من شأنه ترويع المستعمر المحتل الظالم ، أو الحاكم المصرى المستخذى . كانت ثورة مستمرة لا تهدأ ولا يغمض لها جفن !

وكان من اثر هذه الخيبـة التى جعلت الدنيـا تظلم فى عيون المصريين ان وثب للعمل نفر منهم متفقين على الهدف ، أو مختلفين متفرقين لا تجمعهم رابطة . وقالوا دون ان يصيحوا . ويفعلوا صامتين ـ فعل الرجال ـ لا كما يفعل النساء الذين يصخبون ويضجون وقصارى جهدهم الصياح والولولة . « لابد من القتل فان القتل انفى لقتل امة وذبح الآمال التى فى صدور ابنائها » .

واذكر ان لجنة الطلبة كانت منعقدة عقب عودة سـعد زغلول وتصريحاته وكان يراسها ابراهيم باشا عبد الهادى وكان الشعور قد بلغ ذروة الحماسة والاندفاع الى التضحية وقد كتبنا منشورا ثوريا ندعو فيه لقتل الانجليز اينما ثقفوا وقـد كان هـذا المنشور من انشائى انا والمرحوم الزميل عبده حسن الزيات . وكنت اقل من السادسة عشرة من عمرى .

وفوجىء المصريون والانجليز والعالم كله بالحادث المدوى . فقد هاجمت جماعة مسلحة بالمسدسات والقنابل سيارة سردار الجيش المصرى وحاكم السودان (سيرلى ستاك) فى الساعة ٢ر٣٠ من بعد الظهر يوم من يناير سنة ١٩٢٥ وهو خارج من شارع الطرقة الذى تقع فيه وزارتا الحربية والمعارف (وعلى ناصيته الآن وزارة البحث العلمى ومحطة بنزين مصر) واطلقوا عليه الأعيرة النارية وفى وسط الجمع المحتشد من موظفى الوزارتين والعاملين العائدين الى دورهم والباعة وركاب الترام فى شارع قصر العينى .

وقتل سيرلى ستاك وسائق السيارة وجرح الياور .

وهرب الجناة .

لم يتتبعهم احد بل كاد المتفرجون أن يصفقوا لولا ضخامة الحادث ومفاجآته للناس !

وابتلعت القاهرة هؤلاء الأبطال ، حتى السيارة التاكسى لم يدل احد برقمها .

وكان المفروض ان لا يظهر اثر لهؤلاء وأن تحفظ القضية وتقيد ضد مجهول . فان أحدا لم يدل بشهادة . وما من شهادة يمكن ان تؤدى الى معرفة احد . ولا قبض على واحد منهم حتى يعذب فيعترف .

وبالرغم من الاجراءات العنيفة التى اتخذها الانجليز فور الحادث وكانت تعتبر كارثة وطنية كبرى فقد هاجم الجيش البريطانى مقر رئاسة الوزراء حيث قابل لورد اللنبى المندوب السامى البريطانى سعد زغلول باشا زعيم البلاد وأبلغه بطريقة وقحة انذارا من الحكومة البريطانية للحكومة المصرية تضمن اخلاء السودان من الجيش المصرى .

السماح للسودان بأن يستأثر بأية كمية من ماء النيل .

وقد رفض سعد زغلول هذين الطلبين وامر بدفع تعويض لارملة القتيل .

وقدم سعد زغلول باشا استقالته وجىء بوزارة تنفذ هذه الشروط . نعم كانت مصيبة وطنية فى ثقلها وجسامتها كفيلة بان تخاق من كل جبان فارسا مغوارا . ومن كل ملتزم للسلامة والبعد من التضحية فدائيا يبذل دمه مسترخصا كل غال ولو كان الولد .

ولكن للأسف ظهر خائن فى وسط هذه الكارثة . لولاه ما اكتشف هؤلاء الأبطال ولا حوكموا ولا شنقوا !

هذا الخائن اسمه نجيب الهلباوى وكان فدائيا اتهم بالاشتراك فى القاء قنبلة على السلطان حسين وحكم عليه مع زميله شمس الدين بالسجن وفى السجن جنده ـ على ما حكى البوليس السياسى الانجليزى ـ لخدمته .

قبل ذلك ـ وقيل انه بعد الافراج عنه ١٩٢٤ ـ سعى للحصول على عمل فلم يوفق ، وحقد على زعماء الوطنية لتنكرهم لفدائى مثله . ويرد على هذا بأن مثل هذا الفدائى لم يعمل لحساب احد حتى يطلب منه الثمن . انما صنع ما صنع وهو صنيع جليل لا شك فى هذا فان المجنى عليه كان سلطان البلاد . فهو انما يطلب الأجر من الله ويهب عمله خالصا للوطن .. هذا المعبود المعنوى .

وقد ظهر فى قضية الاغتيالات أن شفيق منصور عرض عليه باسم سعد زغلول وظيفة فى البرلمان .

على اى حال فقد سعى الى الشقيقين عبد الفتاح وعبد الحميد عنايت فعلم منهما بأسماء من اشتركوا معهم فى الحادث والتاكسى الذى احضراه من الحلمية الجديدة حيث كانا يسكنان وانباه بان الدكتور شفيق منصور المحامى وعضو مجلس النواب والذى كان مرشحا لوظيفة مدير الأمن العام وقت الحادث هو الذى دبر لهم الخطة .

وفى ٢٤ ساعة للأسف من وقت وقوع الحادث كانت أسماء وتفصيلات الحادث لدى البوليس السياسى وابلغت الى لندن !

ولا حول ولا قوة الا بالله !

ولكى يكون الدليل قائما على الاعتراف دبرت خطة جهنمية فقد سخر البوليس السياسى جريدة المقطم وكانت موالية للانجليز لتطبع عددا واحدا به خبر أن البوليس قد توصل الى القبض على معظم مرتكبى الحادث .

وحمل نجيب الهلباوى عدد المقطم الى سكن الشقيقين عنايت واطلعهما عليه ونصحهما بالهرب وقال لهما وهو يبدو من الناصحين المشفقين ، أنه سيدبر لهما الهرب من مرسى مطروح الى ليبيا وهناك يسافران الى أوربا . واقتنعا وكانا شابين صغيرين فلم يحاولا مثلا أن يتصلا بأحد من المتهمين .

واحضر الهلباوى لهما بسرعة ملابس اعراب من الصحراء الغربية وحملا المسدسين اللذين اشتركا بهما فى اطلاق النار وركبا القطار وهو معهما الى الاسكندرية ومن الاسكندرية ركبا قطار مرسى مطروح . وودعهما ، وكأنما كان يودعهما الى الجحيم فى مقابل دراهم معدودات عشرة آلاف جنيه قبضها ثمنا لراس مصر كلها ولا اقول راس خمسة من الأبطال الخالدين .

وركب معهما فى القطار اكثر من الف جندى متخفين فى ملابس متنوعة من ثياب الأعراب والفلاحين والافندية . وقيل وقتها ان القطار كان عبارة عن ترسانة سلاح ! وفى محطة الحمام وقف القطار وكان فى انتظارهما جيش على راسه راسل باشا وانجرام بك .. وسليم زكى .

وقد زوج سليم زكى نجيب الهلباوى احدى قريباته . واشترى الجاسوس بثمن الدماء الزكية عزبة فى بلدته أبا الوقف مركز بيا محافظة بنى سويف .

ولم أسمع أحدا حاول قتله ! لماذا ؟ لست أدرى .

العنه أيها القارىء وأوص أبناءك وحفدتك ان يلعنوه !

على هامش حادث السردار :

أولا – بعد حادث السردار وعلى أساس ما وقع فيه من اعترافات كان اهمها ما اعترف به عبد الفتاح عنايت والدكتور شفيق منصور .

وقد عاب كثيرون من المعاصرين على هذين البطلين اعترافهما . ومن السهل ان ينقد المرء تصرف غيره ولو انه عانى ما عانى صاحب التصرف – كالاعتراف لعذر وما اصدق شوقى وقبله البوصيرى حين قال الأول .

يا عاذلى فى هواه والهوى قدر ... لو شفك الوجد لم تعذل ولم تلم

وقال الثانى :

يا عاذلى فى الهوى العذرى معذرة ... منى اليك ولو انصفت لم تلم

ويقول المثل المصرى « اللى ايده فى الميه مش زى اللى ايده فى النار » اى ان الذى تبترد يده عندما يضعها صاحبها فى الماء البارد ليس كالذى يضع يده فى ماء ساخن يغلى ! الاثنان لا يستويان .
ان شفيق منصور كما عرفت وانا فى سجن مصر – مسجونا – ومعاصرا لسجنه – انه لاقى من التعذيب ما لو نال جبلا لهدمه ، ولحطم الصخر ، واذل الجبار ، فقد سلطوا عليه ليالى طويلة مصباحا مبهر الضوء بنصب ضوؤه القوى على عينيه وكان شفيق منصور ضعيف النظر ويضع على عينيه منظارا سميكا ، وقد خلعوا منظاره وسلطوا عليه المصباح ليلا ونهارا . فلم يغمض له جفن مدة ايام وليال . فلما استيقنوا من وهن اعصابه جاءوا بأخته الشابة او ببديلة لها ووضعوها فى الزنزانة المجاورة . وكانت هذه الأخت هى وشفيق منصور وحيدين فى هذه الدنيا لا ام ولا والد

ولا اخوة ولا ابناء عم . وكان قد رعاها ورباها فهى ابنته واخته
وكل ما له فى الدنيا ، ولكم سمعته بأذنى يقسم « بحياة اختى »
عندما يكون القسم واجبا وصادقا وحاسما .

وضعوا هذه العزيزة ـ بل أعز ما فى حياة شفيق منصور ـ فى الزنزانة المجاورة ـ أو بديلتها ـ وجعلوها تصرخ مسترحمة من هتك عرضها وتنادى اخاها وتستحلفه أن يعترف حتى لا تصاب فى أعز ما تملك .

ولقد هزم البطل الذى حارب بريطانيا منذ حادث الوردانى فقد كان شفيق منصور أحد المتهمين فى قضية مقتل بطرس غالى باشا ولكن قاضى الاحالة ـ وكان اسمه متولى بك غنيم ـ قد قرر بأن لا وجه لاقامة الدعوى على الشركاء لأن القانون كان خاليا من نص يعاقب على الاتفاق الجنائى وقد صدر القانون مجرما الاتفاق الجنائى عقب هذا الحكم .

انه اعتراف اجرامى اغتصب بأفحش ما يكون اجراء بوليسى ومن الانجليز اولئك الذين ادعوا دائما تقديس القانون .

اما اعتراف **عبد الفتاح عنايت** فقد كان وليد الصدفة فقد ذكرنا آنفا أن نجيب الهلباوى قد ودعهما وسافرا من الاسكندرية الى مرسى مطروح لكى يهربا الى ليبيا ، واذا بهما يفاجآن بجيش من البوليس ينتظرهما فى محطة الحمام . واذا بهما يكتشفان أن جميع من بالقطار من ركاب هم رجال بوليس ومسلحون .

وقد كشف الهاربان البطلان أن صديقهما قد خان وغدر وهو المصرى الفدائى الذى ائتمناه على اضخم سر فى القرن العشرين .

لقد انهارا . ومن كان يمكن أن يتماسك ؟ ! من كان يستطيع أن يتجلد ؟ من يدعى القدرة على الصمود ؟

لو كان البوليس قد صب عليهما الوان التعذيب ، وأصابهما بآلات التمزيق والتفتيت لكان فى امكانهما أن يتحملا ويصمدا .

اما الغدر والخيانة ، والطعن من الخلف .. ومن صديق وزميل وفدائى وطنى فتلك لا احتمال تحت وقعها ولا صمود لثقلها .

لقد اعترفا وهما بطلان عظيمان .

وسيظلان من أعظم الأبطال الذين مروا بتاريخ مصر الوطنى .

شفيق منصور مرة أخرى :

نشر الدكتور حسين مؤنس فى مجلة آخر ساعة بحثا تناول فيه حادث السردار وقد اخطأ فى موضعين مع دقة بحثه واستعراضه البديع للحادث .

اما الخطأ الأول فقوله ان شفيق منصور قد نفس على زميليه ماهر والنقراشى ما نالا من مناصب فى حين انه حرم من بلوغ اى منصب فقام بالحادث لحسابه ونتيجة حقده وهذا خطأ محض ، وخطأ فاحش ولعل عذره كمؤرخ انه لم يجد المرجع الشاق فاستنتج وقد كان بعيدا عن مسرح الأحداث .

واصحح له فأقول بادىء ذى بدء انه فى الوقت الذى كان النقراشى قد عين وكيلا لمحافظة القاهرة وهو منصب لا قيمة له ولكن سعد زغلول اراد أن يبدد نفوذ وسلطان راسل باشا حكمدار العاصمة والضباط الانجليز بتعيين النقراشى وكيلا للمحافظة ومحافظا فعليا فان منصب محافظ العاصمة كان يختار له دائما رجلا وجيها غنيا ليس له فى «الطور ولا فى الطحين» . او لا شخصية له ، حتى تبقى ازمة الأمور فى يد الحكمدار الانجليزى .

فى هذا الوقت كان شفيق منصور قد انتخب بترشيح سعد زغلول نائبا فى مجلس النواب عن دائرة باب الشعرية .

ثم بعد أشهر وقبيل وقوع حادث السردار عين النقراشى وكيلا لوزارة الداخلية ونشرت جريدة المقطم أن الدكتور شفيق منصور المحامى وعضو مجلس النواب سيعين مديرا للأمن العام وهى

وظيفة كانت تعتبر اخطر وظيفة فى وزارة الداخلية . كان يشغلها « بدر الدين باشا » .. ايعرف القارىء ماذا يعنى بدر الدين وانجرام وفابيدس فى ذلك العصر والأوان ؟ — هذه أسماء تعنى ما تعنيه أسماء صلاح نصر وشمس بدران وحمزة البسيونى ورياض ابراهيم .. رجال التعذيب وتلفيق التهم للوطنيين الأبرياء واعداد المؤامرات التى يلقى بسببها الخطرون فى غيابات السجون .

بهذا التصحيح — ولو ان سعد باشا نفى ذلك الخبر فور نشره — ولكننا ننفى شبهة حقد شفيق منصور على من ؟ على سعد زغلول وهو ربيبه وتلميذه ، كما انه الصديق الصدوق لماهر والنقراشى .. رحمة الله عليك يا شفيق منذ كنت من عظماء التاريخ المصرى .

أما من الناحية الروحية فهل يصح فى الذهن وفى شرعة العقل السليم ان الرجل الذى يعمل فى ميدان الفدائية منذ سنة ١٩١٠ ويقدم على حادث كان يقدر هو كدكتور فى القانون وكمحام قديم وكعضو مجلس نواب ما ينتج عنه من خطورة وآثار مخوفة ومخيفة، وكوارث لمجرد انه حرم من وظيفة ؟ ! وهل يقدم الفدائى على تضحية روحه وماله ومستقبله واضعا تضحيته فى كفة ميزان وفى الكفة الأخرى وظيفة ؟ او مال ؟ او اى جاه ؟

لا لقد اخطأ التوفيق الكاتب المتقن الرصين حسين مؤنس .

أسباب الحادث :

كما اخطأ فى حصر سبب الحادث الخطير الذى نقول بحق انه اخطر حادث فى تاريخ مصر فى القرن العشرين اذا كانت مذبحة المماليك هى اخطر حادث فى القرن التاسع عشر . فى حقد شفيق منصور على سعد زغلول !

لا لم يكن هناك حقد اطلاقا فى قلب ولا نفس شفيق منصور فقد كان رجلا لطيفا بسيطا يحب الناس جميعا ويحبه الناس جميعا . كان له قلب طفل ونفس ملك لا يعرف الخبث ولا سوء

النية أو الطوية . وكان يقسم اذا أقسم بحياة « اخته » وكانت هى كما ذكرنا القريبة الوحيدة له فى دنياه . ولقد عرفته وكان مراسلى فى المدرسة الثانوية وهو الذى سعى لادخالى مدرسة ثانوية بعد فصلى من مدرسة فؤاد الأول فى يوم ١٣ نوفمبر .

وانما هناك سببان متفرقان لا تربطهما رابطة .

السبب الأول : وهو ما ارجحه فهو رد الفعل الذى أصاب البلاد من جراء الفشل الذى نالته مفاوضات سعد زغلول مع رمزى ماكدونالد وقد كان المصريون يعلقون عليها آمالا كبارا وكانت الحرية تتراءى لهم على مسافة أمتار وعلى بعد ساعات فقد كان رمزى ماكدونالد قد قابل سعد زغلول قبل ان يخوض معركة الانتخاب وهو فى طريق عودته من الهند وقال له كما قلنا بالنص « ان المسألة المصرية الانجليزية تحل فى فنجان شاى » .

فلما فشلت المفاوضات كان رد الفعل خطيرا الى حد انه حول كل مصرى الى قاتل ، متعطش لدماء أى انجليزى . وهذا تعبير استقيه من الواقع ومن تاريخى انا فقد اسلفت ذكر ما وقع لنا ومنا . نحن اعضاء لجنة الطلبة الوفدية — ولما وقع الحادث ولم يكن قد ظهرت بعد اسماء الذين ارتكبوا الحادث كان كل الناس يظنون بعض الظنون فى — جمعية الهلال الأبيض السودانية — الحزب الوطنى — لجنة الطلبة التنفيذية الى حد أن كل منا نحن اعضاء اللجنة كان يظن فى الآخر وذلك بسبب عنف وحماسة المناقشة التى جرت فى آخر جلسة انعقدت فيها اللجنة واصدرت فيها منشورا ثوريا تعلن فيه الكفاح ومقاتلة الانجليز .

أما كون هؤلاء الرجال استأذنوا او لم يستأذنوا النقراشى وماهر أو سعد زغلول أو أنهم خافوا من مغبة الحادث فأمر أناقشه انا بالآتى .. اننا نحن اعضاء لجنة الطلبة ونحن نجتمع فى غرفة من بيت الأمة وعلى بعد خطوات من غرفة سعد زغلول وليس بيننا وبين

ماهر أو النقراشي حجاب لم تعرض المنشور الثورى الذى يدعو للقتل والتدمير والثورة ولم تستأذن واحدا منهم ولا فكرنا او تناقشنا فى العواقب ماذا تكون النتائج . مع اننا جميعا كنا نعلم ان حوادث الاغتيال كانت كفيلة باطاحة بحكم سعد زغلول اذ لم تكن الوزارة غاية سعد زغلول ولا رجال الوفد ولا شباب الوفد . وانما كانوا يؤمنون بان وظيفتهم هى الجهاد فى سبيل الحرية والاستقلال وبذل الروح والدم فى هذا الجهاد المقدس .

فيكون حال المجاهدين الذين قتلوا السردار كحالنا — كان يهمهم ان يصنعوا شيئا اطاح بوزارة سعد زغلول أو لم يطح بهما فما كانت الوزارة عند سعد ولا عندهم غاية ولا أملا !

السبب الثانى : ان سعد زغلول وماهر والنقراشي وشفيق منصور هم مدبروه ، فقد كانوا قد ادركوا ان وظيفتهم ليست الحكم ، وانهم اخطأوا اذ قبلوا مهمة تولى الوزارة وان وظيفتهم الأولى والأخيرة هى الجهاد ، وقد كانوا قد اقتنعوا كما اقتنع المصريون الخالصو الوطنية ان المفاوضات غير مجدية بل هى طريق مسدود . تسده اطماع الانجليز محافظين كانوا ام عمالا أحرارا أم استعماريين .

كما ادركوا ان الوزارة حمل ثقيل يؤدهم حمله لانه من ثقلين او من الانجليز المحتلين بجبروتهم وعنادهم وعدم مبالاتهم بأى اعتداء ينزلونه على الوزارة أو على مصر . وقصر الملك الذى ضاق بحدود الوظيفة الضئيلة وهى وظيفة الملك مع وزارة يرأسها زعيم الثورة قائد الشعب وصاحب الكلمة العليا — بعد كلمة الله — اما هو فقد زحزح عن سلطانه العظيم المطلق الذى لم يكن يحده الا ارادة الانجليز وما دام هو لا يخرج عن الخيط الذى يحدد ارادة سادته المحتلين . فهو مطلق التصرف فى الحكومة ، وفى الأموال ، وفى اعيان الأوقاف ينهب فيها القدر الذى يبغيه ، ويرفع للمناصب خلصاء وينحى اعداءه — اما وقد اصبح يملك ولا يحكم ، وان الحكم

يجرى فى البلاد عن طريق سلطات قوية « **البرلمان** » — السلطة التشريعية — والوزارة « السلطة التنفيذية والقضاء — السلطة القضائية » — أما وقد انتهى الى هذه الضآلة فقد اتخذ طريقه الى الدس .. يشير رجال الأزهر وهو يظن أن للعلماء ولرجال الأزهر وطلابه مكانة محترمة فى نفوس الشعب . ويشجع الخارجين عن الوفد بالانعام بالرتب والمراكز العالية ، ويحاول ضم قوم من متحمسى الوطنية كعلى ماهر وحسن نشأت والابراشى فقد كان على ماهر ابن أخى عبد الرحمن فهمى مستودع اسرار الوفد ، وشقيق احمد ماهر ومن أوائل من انضم للوفد ، وكان قاضيا واستاذا بمدرسة الحقوق وكان الى ذلك كله شابا ، وشابا متقدا بالحماسة الوطنية . ومع ذلك ما أن اشار اليه الملك باصبعه حتى سارع اليه ! وظل الى جنب الملك حتى ودع الملكية كلها ، حين ودع فاروقا وهو يغادر المياه المصرية بلا رجعة . ولم يعد من وقتها من « **السراى** » الى أحضان الوطنية ! وكذلك حسن نشأت فقد كان مدرسا فى كلية الحقوق وكان من المبعوثين فى عهد سعد زغلول وكان فى مستهل حياته ولا جدال من الوطنيين المتحمسين بدليلين الأول انه كان من **لجنة الموظفين التى قررت الاضراب فى سنة ١٩١٩** واستجاب لندائها جميع موظفى مصر من شمالها لجنوبها ومن شرقها لغربها ، والدليل الثانى انه كان صديقا حميما لمحمود اسماعيل المتهم الجبار فى قضية السردار . حتى ظن بعض الناس ان حسن نشأت قد اوصى **محمود اسماعيل** بارتكاب هذه الجناية خدمة للسراى التى كان من عملائها لكى تتخلص من **سعد زغلول** وهو فرض بعيد الاحتمال جدا اذ لو كان يجرى هذا الفرض صحة على **حسن نشأت** فهل ينسحب على محمود اسماعيل ؟ الذى دبر وجهز واعد ونفذ اعظم جريمة قتل سياسى حدثت فى تاريخ مصر ؟ الا انه ما ان اشارت له السراى باصبعها حتى اندفع الى الالتصاق بها وظل يحكم مصر فترة عامين حكما مطلقا ، يعز من يشاء ويذل

من يشاء ، ثم طرد من مصر بأمر من الانجليز وبرضاء وراحة من الشعب باكمله الى السلك السياسى وظل كذلك منطفأ يمارس التجارة حينا والصناعة حينا . ويجمع المال وهو كانسان وسياسى وكمبعوث وأستاذ حقوق انطفأ وهو فى سن لم تبلغ الاربعين . وظل منطفأ حتى مات .

وكذلك محمد زكى الابراشى كان وكيلا للنائب العام واشترك فى اضراب الموظفين سنة ١٩١٩ وكان من أبرز أعضاء لجنة الموظفين التى فكرت ودبرت ونفذت الاضراب الخالد .

ولكنه سرعان ما جذبه الملك فؤاد اليه واستعمله لديه ، وظل فى السراى حتى انطفأ .

اقول هكذا زهد سعد زغلول واصحابه فى الحكم بعد ان تبين لهم ان مكانهم الصحيح هو فى موضع قيادة الأمة الى الثورة على المحتل ، وعلى القصر . باى وسيلة ومن اى سبيل وباى سلاح . فاتخذوا جانب المخاطرة .

وقد كانت المخاطرة عظيمة لا يقدم عليها بضعة رجال ولكنها مخاطرة مدبرة مدروسة اختيرت لها الضحية خطيرة ليكون لموتها وقع مدوى يملأ الحديث عنه اقطار العالم ، ويسترعى انتباه الغافلين من شعب وحكومة وبرلمان بريطانيا العظمى .

لم تكن حادثة السردار من تدبير شفيق منصور لانه غضب من سعد لانه لم يستوزره كما فعل مع ماهر والنقراشى — كما يقول الكاتب المدقق المنصف دكتور حسين مؤنس فى مجلة آخر ساعة — اذ ان شفيق منصور كاد أن يعين قبيل الحادث فى أخطر وظيفة فى الدولة وهى وظيفة « مدير الأمن العام » حيث يستطيع ان يحرس الأمن العام ويقضى على نفوذ كين بويد وانجرام ورسل وهؤلاء العصبة الفتاكة من بنى التاميز . وذلك كما قلنا من قبل ونكرره حتى يرسخ فى الاذهان .

اذن لم يكن شفيق منصور غاضبا الذى كان نائبا فى مجلس النواب العام .

أما النقراشى فلم يكن وزيرا وقتئذ ولكنه كان قد عين وكيلا لمحافظة القاهرة لكى يقضى على سلطة الضباط الانجليز وعلى رأسهم حكمدار العاصمة « العاتى » « رسل باشا » وقبيل وقوع الجريمة عين وكيلا لوزارة الداخلية .. لتكون جهازات الأمن والضبط والربط فى رباط اصبعه يحركها شرقا وغربا .

ولم يكن محمود اسماعيل ومحمود موسى وابراهيم راشد . هؤلاء الأبطال ليقتلوا سردار الجيش المصرى وحاكم السودان دون ان يأخذوا الاشارة من أحمد ماهر البطل الذى علمهم كيف يطلقون المسدس والبندقية ويلقون القنبلة فى جبل زينهم ... ومعهم حسن **كامل الشيشينى** المدرس الهادى المهذب بكلية التجارة وقد قتل اثناء التدريب « حمدى » فدفنوه فى زينهم . وكم دفنوا — كما **قال لى مرة النقراشى** فى موقف حسرة على الشباب الذين قتلوا فى سنة ١٩٤٥ . بايديهم من شباب .

اذن فحادث السردار كان بعلم سعد باشا وقد زهد فى الحكم وقرر العودة الى النضال الثورى . وقد اثاره خديعة حزب العمال فى المفاوضات وادرك أن القوة هى السبيل الوحيد لاستخلاص الحقوق . فعاد الى ثوريته القديمة التى لم تطفئها الشيخوخة . والثورية لا تخضع لعوامل الزمان ولا تطاول العمر . ولكنما يقضى فيها الأصالة او الادعاء .

وكانت الجريمة بتدبير أحمد ماهر والنقراشى وشفيق منصور ومحمود اسماعيل — وهذا الأخير كان كاتبا فى وزارة الأوقاف وكان حسن نشأت وكيلا لوزارة الأوقاف . وكان وكيل الوزارة يمر

بمكتب الكاتب المسكين محمود اسماعيل ليأخذ بذراعه ويخرج معا امام اعين الموظفين جميعا الذين كانوا يظنون بعلاقتهما أسوأ الظنـون !

وكان حسن نشات يسعى جاهدا ليعرف ماذا تدبر العصابة ولكنه لم يحظ بكلمة من صديقه الصدوق « الكاتب المسكين محمود اسماعيل » .

وتمت الجريمة بتدبير محكم . وهرب الجناة على اعين الآلاف من المواطنين من موظفى وزارة المعارف (التـربية والتعليم) وموظفى وزارة الحربية وركاب قطارات الترام بشارع قصر العينى فى الساعة الثانية بعد الظهر موعد انصراف المواطنين من اعمالهم الى بيوتهم !

ولم يحظ البوليس بشاهد واحد يصف واحـدا من الجناة **او يدلى برقم سيارة التاكسى .**

مع ان كثيرين جدا من افراد الشعب رأوهم وكان يمكنهم التبليغ والارشاد عن اوصافهم . ولكنها كانت جريمة ترتكب لحساب الشعب كله فاشترك فيها الشعب كله ان لم يكن بأيديهم فبقلوبهم وهو من اعظم الايمان واقواه .

وقد كان وهرب الجناة . ولم يتركوا اثرا ولابرز شاهد واحد على مدى ايام .

ولولا الخائن المبلغ **« نجيب الهلباوى »** لمـا اهتدى البوليس الى الأبطال الفدائيين ولاقضى عليهم بالاعدام ولمـا نفذ هذا الحكم فى اعظم ابطال مصر جسارة من اجل جريمة ارتكبت لصالح الشعب المصرى .

قضية ماهر والنقراشى :

عقب الانتهاء من قضية مقتل السردار وعلى ضوء الاعترافات التى استلبت قسرا وتعذيبا من شفيق منصور تبين للسلطات ان

جميع الاغتيالات السياسية كان يرتكبها احمـــد ماهر والنقراشى والجماعة المنتمية اليهم . وكشفوا ان المتهمين الذين حوكمـوا من قبل امثال « نقليم وسيد محمد اللذان اعدما والشافعى اللبان الذى حكم عليه بالسجن وغيرهم كانوا ضحايا لظلم الاتهام والتلفيق » .

وبالرغم من انه قد أسندت اليهم مئات التهم هم وآخرون من الفدائيين المجاهدين فانه لم يظهر فى هذه القضية خائن واحد !

الشروع ..
فى ...
قتل ...
اسماعيل صدقى ....

فى سنة ١٩٣٠ ضبط شاب من أهالى (الدر) وابن طه (بك) أبو زيد نائب الدر فى مجلس النـواب الذى صنعه صدقى باشا وهو يرتدى زى « سـفرجى » فى قطار كان يسافر فيه اسماعيل صدقى باشا وضبطت معه « بلطة » واتهم بالشروع فى قتل اسماعيل باشا .

لم يظهر خائن مبلغ فى هذه القضية ولكن ظهر فيها من هو اشنع منه واردا تصرفا وهو والد هذا الشاب فقد بلغ به النفاق لاصحاب السلطان ان ينشر فى الصحف بيانا يتبرأ فيه من ولده ويستنكر ما فعله .

والاب الذى رددت عليه فى مجلة كان يصدرها المرحومين بديع خيرى ومحمود طاهر العربى بمقالة افتتاحية الوم فيه هـذا الاب الذى تجرد من مشاعر الابوة واحاسيسها ، لم انحـرف عن جادة الحق حين ادان ولده قبل ان يدينه القضاء . وقلت له ان الحيوان

لا يتخلى عن ولده وخاصة فى الموقف النكد ، وان الناس جميعا — وعلى راسهم صدقى باشا يحتقرونه ويحتقرون هذا التصرف !.

وبالرغم من أن المتهم لم يكن قد اتخذ خطوة بعد مرحلة الاعداد ولم يصل الى مرحلة البدء فى التنفيذ الا أن المحكمة رات انه باتخاذه مكانا فى القطار قد بدأ التنفيذ مع انه كان من الجائز أن يعدل وقضت بسجنه خمس سنوات . وتوفى وهو فى السجن . رحمه الله وجعله فى الشهداء فقد مات مسجونا مظلوما .

وهانذا بعد اربعة وأربعين عاما اكتب عن الحادث والمتهم ووالده والحكم فأحيى المتهم ، وأترحم عليه ، واعيد احتقارى لوالده واستنكر الحكم الذى صدر . ولا عذر للمحكمة التى أصدرته بأن صدقى باشا كان يقصى القضاة ويشردهم فقد كانوا مستشارين غير قابلين للعزل وقد كان عشرات بل مئات من القضاة القابلين وقتئذ للعزل يتحدون سلطان الوزارة الغاشم وسلطان القصر الظالم !



قضية القنابل الكبـــرى

قضية القنابل الكبرى : وقعت بعد ذلك فى سنة ١٩٣٢ حوادث قنابل كانت توضع فى أنحاء شتى من اقسام البوليس ، الى السراى الملكية ، الى سراى محمد على (حين رشحه الانجليز ملكا على السودان ليكون مستقلا عن مصر) . ولفقت قضية لبعض رجال الوفد وعمال السكك الحديدية والعنابر وشباب الوفد وكان على راسهم الدكتور نجيب اسكندر باشا (وزير الصحة سابقا) وهو واخوه الأستاذ راغب اسكندر المحامى الذى كان عضو الوفد المصرى فى طبقته الثالثة بعد القبض على سعد باشا ومن معه ثم على حمد باشا الباسل ومرقص حنا باشا وفخرى بك عبد النور وتألف الوفد الثالث .

والشقيقان الكريمان من خيرة رجال مصر وطنية واخلاقا وعلما ولقد كان الدكتور نجيب اسكندر مندوب وزارة الصحة فى لجنة اضراب الموظفين سنة ١٩١٩ كما كان من اعضاء نادى المدارس العليا الذى « حضر » للثورة وكان من الأصدقاء الحميمين لماهر والنقراشى يحبانه ويحترمانه وان انسى ما انسى يوم حدثنى أحمد ماهر باشا تليفونيا يطلب منى أن أحضر حفلا انتخابيا أقيم للدعاية للدكتور

نجيب اسكندر فى شبرا وكان منافسه اللواء فطين باشا ودعانى لالقاء كلمة شباب الوفد وختم حديثه العذب بقوله « وأنت تعلم معزة الدكتور نجيب عندنا كلنا » .

وفى هذه القضية قام التلفيق بدور هام وجىء برجل عامل اسمه **ابراهيم الفلاح** لكى يقرر انه كان عضوا فى الجمعية التى تآمرت على قتل صدقى باشا وشخصيات عديدة وانه آثر ان يحمى البلاد من شر هؤلاء المجرمين .

وكان لظهور هذا الخائن « **ابراهيم الفلاح** » ضجة كبرى فى جميع انحاء البلاد . وقد نال مبلغا كبيرا لقاء خيانته . وكان عاملا ولكنه كان مدسوسا من رجال البوليس السياسى . وقد اعتدى عليه عدة مرات !

اذكروا هذا الاسم « ابراهيم الفلاح » .

ولقد حضرت فى هذه القضية وحضرت وقائعها وكنت محاميا ناشئا لم يمر على عامان فى الاشتغال بالمحاماة وكانت بطولة الدفاع للمرحومين مكرم عبيد ونجيب الغرابلى وقد وقع بينهما الخلاف وكان كلاهما نقيبا للمحامين وعضوا بالوفد المصرى واثناء هذه القضية قدم خمسة عشر محاميا للتأديب . وهى قصة طويلة ليس هنا مكانها .

ولكننى برزت فى نفس العام فى قضية أخرى وهى قضية : القنابل رقم ٢ :

وكان المتهم الأول فيها المرحوم عبد القادر بك مختار وكان من رجال الوفد المجاهدين القدامى وكان ضابطا بالجيش ثم بالبوليس ومديرا لمديرية أسيوط ثم فصله اسماعيل صدقى باشا وكان أخيرا رئيسا ومن مؤسسى جمعية الشبان المسلمين . وكان رجلا فاضلا ومجاهدا بطلا ونزيها .

وكانت التهمة القاء قنابل على مؤسسات حكومية وشروع فى قتل شيخ الأزهر وكثير من رجال مصر وكذلك بويد ورسل باشا .

وكان المتهمون من موظفى الحكومة ومن العمال .

وكان الخائن المبلغ مشكوكا فيه . فقد تنبه رجال البوليس بعد ظهور فضيحة ابراهيم الفلاح التى فضحت البوليس السياسى بل دمغت وزارة صدقى باشا كلها بالكذب والتلفيق وايقاع الابرياء فى الاتهام .

قضية قنبلة طما :

وقد اتهم فيها شاب اسمه طه ابو غريب من عائلة ابو غريب المعروفة العريقة بمدينة طما محافظة سوهاج بوضع قنبلة زمنية على الخط الحديدى الذى يمر عليه قطار صدقى باشا فى رحلة له الى الصعيد عند بلدة طما . وقد انفجرت القنبلة قبل وصول القطار بدقائق وقد تمكن سائق القطار من ايقافه قبل وصول القطار بمائة متر تقريبا .

وقد كان لهذه القنبلة ضجة زعزعت مركز صدقى باشا السياسى فقد كانت من التدبير ومن القوة الى حد أن أوضحت مدى كراهية الشعب له . وقد اتهم فيها عدد كبير منهم الأستاذ/على أحمد هيكل المحامى وعضو الهيئة الوفدية وعضو مجلس النواب السابق (١٩٢٩) عن دائرة طما واحد ارقاب عائلة ابو غريب . وكذلك الاستاذ عبد العزيز الدرملى وآخرين .

ولكن مما هو جدير بالذكر أن المتهم « لم يعترف » رغم التعذيب .

وان خائنا لم يظهر رغم المكافأة المغرية .

ولكن حكم بالقرائن على طه ابو غريب بالأشغال الشاقة المؤبدة وبراءة الباقين .

حيوا معى هذا المتهم الذى قضى مدة العقوبة وخرج من السجن وزارنى فى مكتبى وكان يمثل الرجولة الكاملة وقد تقبل التضحية بلا من ولا طلب لها ثمنا .

حيوا معى هذا الرجل الوطنى الفاضل .

قضية الوثائق المزورة :

وفيها اتهم الأستاذ / عزيز ميرهم عضو الشيوخ الوفدى بتزوير وثائق ضد وزارة صدقى باشا وكان شاهدا الاثبات الشيخ أحمد زكى ومسيحه .

وكان الدفاع عن الأستاذ / عزيز ميرهم عظيما حتى انه استطاع ان يظهر ان التزوير بخط الشيخ احمد زكى وزميله وظهر انهما عميلان للبوليس السياسى .

وكان رئيس محكمة الجنايات هو محمود غالب باشا وقد أصبح وزيرا للعدل من بعد ذلك .

* * *

من بعد هذه القضية وقعت حوادث قنابل منها قنبلة خطيرة اذ انفجرت قنبلة فى دار المندوب السامى وهى الأولى والأخيرة التى اعتدى بها على أخطر مكان فى مصر وهو دار المندوب السامى ـ السفارة البريطانية فيما بعد وكان من نتيجتها ان تغير المندوب السامى وعين مايلز لامبسون . وانعقد الوفاق بين الأحزاب وبين الوفد وابعدت وزارة صدقى باشا وجىء بوزارة نسيم باشا تمهيدا لمجىء الوفد واعيد دستور الأمة (دستور ١٩٢٣) ولم تظهر فى هذه الواقعة ولا القنابل المائة التى انفجرت من قبل خائن واحد لأن الذين اشتركوا فيها كانوا شرفاء وخاصة العمال منهم ولم يحن الزمن لذكر تفاصيل .

فحيوا معى ومع التاريخ محمد ابو المجد التونى ومحمود التونى واللواء طيار عبد المنعم عبد الرؤف .

وسائق السيارة محمد سعيد مرسال الشهير بأبو الغيط .

وسائق السيارة عبد الكريم هلال .

* * *

قضية المؤامرة الكبرى سنة ١٩٤١ :

قبض فى هذه القضية على كاتب هذا الكتاب والنبيل عباس حليم والدكتور حسن عارف المحامى والأستاذ / محمد رشدى حمادى المحامى المتمرن بمكتب (المستشار بمحكمة الاستئناف الآن) .

بتهمة التآمر على قتل الملك فاروق ولورد لامبسون السفير البريطانى ولورد كايزى الوزير الانجليزى المقيم وحسين سرى باشا رئيس الوزراء وتدمير الكبارى المقامة على النيل فرع رشيد فى الوجه البحرى لمنع مرور العتاد البريطانى الى الصحراء الغربية وتدمير مخازن الذخيرة .

ولم يظهر طبعا خائن واحد ولا مبلغ فى هذه القضية لأن المتهمين فيها كانوا قوما شرفاء .

قضية الطائرة سنة ١٩٤١ :

التى سميت ظلما طائرة عزيز باشا المصرى .

ولم يظهر فيها خائن واحد بالرغم من أن مكافأة قدرها ١٠ آلاف جنيه نشر عنها وعلم بها سائق السيارة الذى نقل الثلاثة ـ عزيز

المصرى وعبد المنعم عبد الرؤف وحسين ذو الفقار صبرى من منزلى بالجيزة الى منزل المثال الفنان المعروف الأستاذ عبد القادر رزق فى امبابة .

وعندما قبض علينا جميعا بعد ذلك أصر على الانكار رغم اننا جميعا قصصنا الوقائع دون ابراز الحقائق فيها – ورفض المكافأة .

فحيوا معى عبد الكريم هلال سائق السيارة والفراش بمكتبى الآن .

من سنة ١٩٤١ الى ١٩٥٢ :

وقعت حوادث دامية مثل محاولة الاعتداء على الملك فاروق مرارا والشروع فى قتل النحاس باشا وقتل عبد القادر طه الضابط والشروع فى قتل رفيق الطرزى وقتل أمين عثمان وقتل احمد ماهر والنقراشى والمستشار أحمد الخازندار . وحكمدار البوليس سليم زكى . ومحاولة نسف محكمة القاهرة . والشروع فى قتل حسين سرى عامر . والشروع فى قتل ابراهيم عبد الهادى باشا وحامد بك جودة ولم يظهر خائن واحد .

أولا – لأن الذين ارتكبوا هذه الجرائم من ذوى العقائد .

ثانيا – لأن البوليس السياسى لم يكن يلفق التهم وان كان يسعى لتقوية الدليل بطرق غير مشروعة أو مشروعة !

* * *

المبلغون بعد الثورة



جميع القضايا التى نظرها القضاء العسكرى الاستثنائى كان فيها مبلغون . ولكنهم من نوع آخر فقد خلقت مؤسسات بوليسية . أولها وأخطرها هى المخابرات العامة . وهى غير المخابرات العسكرية التى كانت تختص برجال وأحداث القوات المسلحة . اما المخابرات العامة فهى أصلا مؤسسة لاستقصاء الأنباء داخليا وخارجيا فيما يمس الصالح العام ، اى أمن الدولة فى الداخل وفى الخارج وابلاغه الى الجهات المختصة .

ولكن هذا الجهاز قد اكتفى بالسعى وراء الأفراد لكى يتسمع احاديثهم والشعب المصرى بطبيعته ثرثار ، له غرام بالجلسات والندوات . وله ولع بالانتقاد ، وهذا من حقه . ولكن رجال الأمن من رجال الثورة اعتبروا أنهم هم الأمة وأنهم هم السلطة وأنهم هم مالكو الرقاب والعباد والأرض والسموات ، وليس لأحد ان ينطق عن مصر وصالح مصر الا هم ، اما من عداهم من أفراد الشعب فانهم

ينقسمو الى قسمين : القسم الاكبر مصفقون ومهللون ، وهاتفون بحياتهم بالحق أو الباطل ، ممجدين لكل عمل يقع منهم ولو كان قد بان فساده ، وطمت خسارته ، يقلبون الحقائق فاذا كان السد العالى لم يوضع فيه حجر واحد قال الشعب « قلنا حانبنى السد وآدى احنا بنينا السد » ! واذا منينا فى سنة ١٩٥٦ بشر هزيمة تمنى بها دولة ، قلنا « انتصرنا » وهللنا وكبرنا وضربنا الدفوف ، وقرعنا الطبول ، وغنينا اهازيج النصر . وضحكنا . وضحكنا مستغرقين فرحا ونحن نعلم جميعا اننا هزمنا هزيمة منكرة .

والجدير بالذكر انه لا المخابرات العامة ولا المخابرات العسكرية ولا السفارات المصرية التى ملئت جواسيس للمخابرات ، وافعمت بعملائهم استطاع واحد منهم أن يقول سنة ١٩٥٦ أن حربا قادمة ، مع ان العالم جميعه كان يعلم بأن ملكة انجلترا قد امضت مرسوم التعبئة العامة ، وان الطرادات القاتلة تتحرك فى البحر الأبيض المتوسط وان الأسطول الأمريكى قد اعترض طريقها لمدة ثلاثة أيام. ولا حياة لمن تنادى بالنسبة للمخابرات التى كانت ترصد على المصريين الهمسات والتنفسات ، حتى أن احد الحاكمين فى ذلك العهد وهو رجل عسكرى — قال لصحابه ليلة الاعتداء الثلاثى : **« الم اقل لكم انه تهويش سأذهب لأنام » وضحك ضحكة ساخرة ولكن القدر كان أخطر سخرية وأكثر جدية فقد صحا من نومه والأساطيل تدك بور سعيد !**

تركت المخابرات عملها الاصيل لكى تتبع المصريين الأمناء الأشراف فى مصر وفى الخارج تصطادهم لتسجنهم أو تقتلهم أو تشحنهم احياء فى صناديق مقفلة لكى تشفى غليل الزعيم بوضع فرد تعيس تحت رحمة سلطان لا يعرف الرحمة ولا يخشى الله .

المخابرات والمباحث ابتدعوا بدعة لم تكن من قبل فى مصر ذائعة الشيوع تلك هى تاليف جيش من المخبرين المبلغين من جميع

الطبقات . من أعلا طبقات أبناء وبنات الذوات الى أساتذة الجامعات الى المستشارين والقضاة الى الوزراء الى سائقى التاكسيات الى خدم المنازل . كل هؤلاء كان الواحد منهم يتناول مرتبا شهريا ويجرى عليه الرزق طالما انه يمد هذه المؤسسات البوليسية بالتقارير . وكلما زاد نشاط الفرد منهم كلما أجزل له العطاء .

ولقد كانوا يتربصون بالأزواج والزوجات ويراقبونهم حتى اذا ما ضبطوا احدهم أو أحداهن صوروا الصور فى مختلف الأوضاع ، ودسو المسجلات تحت الفرش والسرر ، وخيروهم بين ان يعملوا تحت ارادتهم ويطيعون طاعة عمياء ولو كان على أقرب الأقربين وأخلص الأصدقاء .. والا الفضيحة ! وكان الكل يفضل أن يعمل جاسوسا متلصصا ونماما وآكلا للحم أخوته وهم أحياء من أن تنشر عنه الفضيحة .

وكنا نسمع أن فى نادى الجزيرة فلان وفلان وفلانة وفى نادى السيارات وفى وسط المحامين وفى الجامعات وفى القضاء .. وفى مجلس الوزراء !

وكانوا بهذه الوسيلة يتحصلون على معلومات وافرة صحيحة أو غير صحيحة فان المقبول عقلا أن هؤلاء الجواسيس ان لم يجدوا ما يقولونه اخترعوه وان وجدوه ضئيلا كبروه وضخموه .

ولذلك لم يكونوا فى حاجة لمتطوع . وان كانوا وجدوا هؤلاء المتطوعين فى قضية حسين توفيق وهو الجنان « الجناينى » وأحد المتهمين ولا داعى لذكر اسمه ! وفى قضية مخيون وجه ضابط زميل لعبد الرحمن وأخيه وصيدلى من الاخوان المسلمين وقد أصبح له مصنع عطور عظيم ! وفى قضية مصطفى امين وفى قضية محمود عبد اللطيف، أسماء لا يصدقها العقل !

* * *

أما فى قضية سيف الاسلام حسن البنا وزملاء له فقد أغمى على حين قرأت اسم المبلغ فهو رياضى مشهور . وهو أهم من ذلك ورع تقى منذ ان كان شابا يافعا وقد حج عدة مرات .. ومع ذلك فقد فوجئت به يقول : **ان سعيد رمضان** قابلنى وانا أؤدى فريضة الحج وسألنى عما تم فى شأن الحراسة التى فرضت على انا واخى وتحدثنا طويلا ثم سألنى ان كنت استطيع ان احمل معى شريط تسجيل لكى اسلمه الى شقيق زوجته الأستاذ سيف الاسلام حسن البنا وقبلت فلما احضر لى الشريط ، جـربته على آلة التسجيل وسمعت ما فيه وعرفت انه سب وقذف فى حق الرئيس عبدالناصر ودعوة الى قتله وكذلك شيخ الأزهر **فاخذت الشريط** معى وسافرت من السعودية الى مصر وعندما وصلت المطار اخـذت طريقى الى المباحث العامة فسلمتهم الشريط !

ولقد طالمـا ساءلت نفسى ولا زلت أسألها الى اليوم :

لمـاذا قبل حمل الشريط بعد أن استمع الى ما تضمنه ؟ لماذا لم يرجعه الى صاحبه ؟ .

لمـاذا لم يحذره مغبة ما سجله على الشريط ؟ لمـاذا حمله عبر الطريق من السعودية مسعى الحجاج ومهبط الوحى الاسلامى الذى يمنع الأذى عن الناس ؟

لمـاذا أوقع بمسلمين وشرد عائلاتهم والقى بهم فى السجون ؟ أيكون مسلما مثل هذا المبلغ ؟

وما الثمن الذى قبضه ؟

والله لو كان ملك الدنيا لمـا كان مساويا لعذاب النـاس وآلام اهليهم !

واشد مضاضة على النفس من اشرطة الفاسقين تقارير الذين يجلسون فى منصات القضاء ليقضوا بين الناس بالحق ويعدلوا بين خلق الله ! فلقد ظهر أن عددا كبيرا منهم قيل أن عـدده يبلغ ٢٤٠ قاضيا ومستشارا ووكيلا للنائب العام بل النائب العام نفسه الذى عين بعد الرجل النزيه محمد عبد السلام كانوا يشون بزملائهم بتقارير مكتوبة وياليتها كانت تطوعا فنقول سولت لهم انفسهم ولكن فى مقابل اموال يقترفونها وياكلونها سحتا وظلما .

انبى باسم خمسين عاما فى دراسة القانون والحـق والعدل وممارستها اطالب بالبتر والقطع والفصـل ، حتى يستقيم الجسد الكريم الطهور ، حصن العدالة فى مصر الذى كان فخـرنا وموئل اعتزازنا فى تاريخ مصر الحديث .



ختامه مسك
حسن الفقاعى



لـكى نجعل فصل ((المبلغين)) الخائنين يذهب بددا ، ولا يترك حسرة فى نفوس القارئين ، والمصريين منهم خاصة ، ولكى لا تروج الظنون بهم الى حد اعتبار أن ذلك السلوك الشـاذ قاعدة فى خلق اهل مصر ، بل انه عرض تافه لا يظهر الا بين قرن وقرن ، ويقوم له كيان مهدم محطم فى عهد الظلم الذى يخلق الخوف ، ولو حسبنا فى نصف قرن لوجدنا عدد المبلغين لا يزيد عن الثلاثين فى عشرات الملايين .

ان الختام الذى نتركه مسكا عطرا ينفذ طيبه ، ويستمر عرفه الزكى خلال الدهور اسمه « حسن الفقاعى » .

وقد بلغ من عظمة هـــذا الصبى أن ذكرته وثائق الحملة الفرنسية وان أحد المؤرخين الفرنسيين العظام الذين ســايروا الحملة لكى ينقلوها الى صفحات التاريخ والخلود ولقــد نقلوها بالفعـــل ـ قد كتب عنه صفحة رائعة واسـمه فيفـان دينون

Vivian Denon قد كتب عنه صـــفحات كاملة وذلك الجنرال بليار فى كتابه عن الحملة الفرنسية .

ويزيد هذا الصبى خلودا ونباهة ذكر ، وعظمة وطنية ان رسم نفس المؤرخ فيفان وكان رساما فنانا صورة لموقف هـذا الصبى « حسن الفقاعى » مع القائد ديزيه وانه ليسعدنا أن ننشر هذه الصورة القلمية لكى تنسخ جميع الصور الشوهاء التى خلفتها قصص الخائنين .

الحملة الفرنسية

فى ديسمبر سنة ١٧٩٨ كانت الحملة الفرنسية تسير الى اخماد ثورة الصعيد بعد أن دوخهم المصريون فى الاسكندرية والدلتا وفى المنزلة وفى القاهرة والفيوم

وكانت ثورة الصعيد عنيفة دامية يكفى فى وصفهـا ما قاله الجنرال دافو Davou فى مذكراته عن حملة الصعيد وهو « انـا نستهدف لاخطار كثيرة كلما أوغلنا فى بلاد يحمل جميع اهلهـا السلاح » .

وفى ١٦ ديسمبر سنة ١٧٩٨ وصل المشاة الى قرية الفقاعى وهيأت نفسها للراحة فى حوزة نخيل حتى تصل المدفعية ..

ووضع الجنود سـلاحهم على هيئة راحة اى كل عدد من البنادق على شكل هرمى ، وغلب اكثرهم النعاس فلم ينتبهوا الى غلام فى الثانية عشرة من عمره يرتدى جلبابا على جسده يغافلهم ويستولى على عدد من البنادق القاها الى زملاء له كانوا ينتظرونه وأخـــذ واحدة لنفسه لاستعمالها اذا تعقبه احد ، ولكنه لم يكن يدرك انها نوع احدث مما علمه ابوه كيف يســتعمله ، وهنـا تنبه أحد الجنود فتعقبه وضربه بالسيف على ذراعه لكى يلقى البندقية ثم قبض عليه وساقه جريحا الى الجنرال ديزيه .

وكان الجنرال يجلس فى ظل نخلة وقـد اتخذ من جزعهـا الغليظ مقعدا فأخذ يستجوبه .

اما الغلام فكان قد وقف رابط الجاش مرفوع الهامة ، منتصب القامة ، كأنه عملاق ، أو أسطورة .. وانه بالفعل لأسطورة لكل زمان وفى كل مكان ! وسأله الجنرال ديزيه عما دعاه الى ارتكاب هذا العمل .

ويقول المؤرخ الفرنسى ان الغلام أجاب بشجاعة وقد القى نظرة الى السماء قائلا « ان الله العلى العظيم » قد أمره بذلك .

وسأله الجنرال عمن حرضه على ارتكاب هذه الجريمة التى عقوبتها الاعدام .

فأجاب الغلام وهو باسم

ـ« اننى فعلت ما فعلت بوحى من الله . ولم يحرضنى أحد »

وقال له الجنرال انه سيحكم باعدامه لان عقوبة جـريمته الاعدام ولكنه ان أرشده الى من حرضه من كبار أهل القرية فانه سيخفف عنه الحكم . ولكن الغلام ابن الثانية عشر من السنين ـ رد صائحا .

« اليك رأسى فاقطعها ... أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله » .

ويقص فيفان ان هذا الغلام قد ملك بشجاعته قلب الجنرال فعفا عنه وأطلق سراحه وامر بتضميد جراحه وان كان الجنرال بليار قد روى فى يومياته ان الجنرال ديزيه امر بمعاقبته بجلده ثلاثين سوطا وانه قد تقبل العقوبة بصبر ورباطة جاش واحتمال كانت كلها موضع اعجاب الجنود والقادة ويعقب الجنرال بليار على ذلك بقوله « لو ان هذا الغلام اعتنى بتربيته وتنشئته لأصبح شخصية نادرة المثال » .

ونسى الجنرال بليار ان مصر جميعها تمثل حسن الفقاعى وان سكانها هم أهل الصبر والاحتمال ، ورباطة الجاش . بدليل ما لاقوا به الحملة من ثغر الاسكندرية الى بلاد النوبة من قتال ومقاومة .. وما قدمه المصريون الذين يحملون سلاحا متأخرا عن سلاح جيش نابليون خمسين عاما على الأقل ! فى القتال مدافعين عن مصرهم العزيزة وحتى فى عهد ظلم المماليك !

ان جيش نابليون الذى هزم أوروبا كلها .. هزمته مصر ! فى ذلك العصر .

هذا حسن الفقاعى يسخر عبر الدهور ، ومن خلال صفحات تاريخ بعبد الظاهر السمالوطى ونجيب الهلباوى — وبالشهود الذين كانوا يسمون كبراء للاسف — منذ محاكمة عمال كفر الدوار الى محاكمة ابراهيم عبد الهادى وفؤاد سراج الدين وابراهيم فرج ومحمد صلاح الدين وعبد الفتاح حسن وجماعة الاخوان فى ١٩٥٤ و ١٩٦٦ ولنقل اذن :

« ان فى مصر غلمانا أشجع من « متبطلين » يدعون البطولة واذا خلا لهم الجو طلبوا الضرب والنزال ، واذا جاء اذان الفداء قالوا « اذهب أنت وربك فقاتلا » ولنقل : ان فى مصر — كما فى كل بلاد العالم — وفى كل زمان .. رجال من ورق يحسبهم الرائى رجالا وهم لم يبلغوا حتى اشباه الرجال .

اهتفوا يا شباب مصر بحياة حسن الفقاعى :

أما أنتم يا ذوى الشعور الطويلة ، والثياب المحزقة — فطأطئوا هاماتكم الى الأرض خزيا وعارا امام شخصية حسن الفقاعى الذى قدم نفسه ضحية لمصر ولم يرد ان يقدمها لفتاة عارية أو نصف داعرة .. مثلكم !

المرافعة



كانت هذه القضية أول قضية ، تمتحن فيها المحاماة فى مصر .

أما قبل ذلك فلم يكن هناك دفاع . ومحاماة ، ومرافعة .

كان أقصى ما بذله عبد الفتاح حسن فى مرافعته عن فؤاد سراج الدين وكامل القاويش عن نفسه ومحمود غنام عن نفسه والذين دافعوا عن عثمان محرم وعن محمد صلاح الدين . عبارات حافلة تنجى من الكرب العظيم .

كل ما كان يستطيعه هؤلاء المحامون أن يفندوا الاتهام ويضعون ابحاثا قانونية أما التعرض للمحاكمة والمحكمة وأساليب التحقيق ونظام الحكم نفسه .. فلا يستطيعونه لأن سيف الظالمين كان مشرعا فوق الأعناق يريد أن ينقض وان يهوى مقطعا أوصال الحياة .

كان مكتوبا على اللافتة المعلقة وراء القضاة الآية الكريمة « واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .

وكان الأولى ان يكتب « لا تنطق السنتكم ايها المحامون والا قطعت وقطعتم » .

« لا تنكروا أيها المتهمون حتي لو كنتم ابرياء فانكم مقتولون فى الحالين » .

« احكموا بالظلم ايها القضاة نؤمن لكم ولابناءكم الحياة » .

* * *

لذلك اردت ان اسجل للمحاماة قولا ، وابدا لها عهدا ، واخلد لها ذكرا .

أعددت مرافعتى . وكتبت منها الأجزاء المهمة وطبعتها على الاستنسيل والرونيو .

وصليت الفجر ودعوت الله ان يوفقنى . وأن لا يخذلنى فى المعركة التى انا مقدم عليها وانا اقدر ان خصومى هم جميع عناصر الشر فى البلاد وهم الذين يملكون السلطة والسلطان .

وكان ايمانى بان الله اعظم واكبر واقوى هو الذى يسندنى ويثبت اقدامى ويطلق لسانى ويثير وجدانى .

الابتـــداء :

وقفت صامتا وفى ثوان مر بخاطرى عظمة دور المحامى فى الحياة : فانه هو الذى يستطيع أن يتكلم حين يصمت العدل والحق وينطق الظلم . ونظرت الى المحكمة فاذا هى بين خائف مما ساقول، وقد بدا لهم اننى غير هياب ، واننى قوال لكل ما أريد . وليس خوفهم منى أو من قولى او من الله ولكن خوفهم كان مما سيقع عليهم

من عذاب الحاكم حين يسمحون لأنفسهم أن يستمعوا .. مجرد الصمت كان يحمل احتمال الأذى لهم .

كما بدا لى من النظرة اليهم كأنهم يقولون لى « قل ما تشاء وانثر دررا او اقذف حجرا وات بالآى والمثانى والمثالث فالحكم معد والموت مترصد . والقبر محفور ، والسجن فاغر فاه .

ونظرت الى المتهمين فرأيت قلوبا تتعلق بفمى ولسانى ، وسمعت تسبيحة على كل فم من افواههم ورايت ثم رأيت كيف يكون المظلوم البرىء وهو معلق فى يد القدر .

وتلفت الى زملائى فلقيتهم مشفقين على مما سينزل بى من لسانى ومن اندفاعى .

وتحدثت الحديث التقليدى ثم بدات اتكلم عن اجراءات التحقيق وكان أهم ما يهم التاريخ والحق اثباته فى هذا الكتاب الاقرار والتعذيب .

الاقـــرار :

ابتدات القضية ـ كما ابتدات كل القضايا التى سترد انباؤها فى هذا الكتاب بخطاب موجه من المخابرات ـ او مباحث امن الدولة او الشرطة العسكرية الى النيابة العامة فى سطرين : نرسل لكم المتهم فلان ومعه اقرار .

فاذا قرات الاقرار وجدت كاتبه هو المتهم وهو يقول من أول كلمة فى اول سطر « أقر انا فلان باننى قتلت فلانا او شرعت فى قتله او اتفقت اتفاقا جنائيا على قلب نظام الحكم وقتل رئيس الجمهورية والوزراء ... و ... و ... » .

وقلت :

« وانما يرسل المتهم ومعه كفنه وقد لف حوله وهيىء به للدفن! وهذا الاقرار هو الكفن » !

ماذا بقى بعد هذا الاعتراف الشامل الكامل ؟

بل ماذا كان قبل ذلك وهو الأهم ؟

كان التعـــذيب :

كان ما قاله المتهم العقيد عبد الرحمن مخيون امام المحكمة .

« انه من الحتم على أن أقول اننى وأنا لا أزال ضابطا فى القوات المسلحة . ولا زلت ارتدى الثياب العسكرية المشرفة لكل من يرتديها قد حرض على زملائى جندا يضربوننى ضربا مبرحا حتى ينالوا منى اعترافا » .

فهل يقبل قاض مهما كان لونه ، ومقام عدله ان يقول متهم ذلك امامه وعلى سمعه ولا يحقق واقعة التعذيب التى تذكر له مشافهة وفى مجلس القضاء ؟

وهل يقبل رجل عسكرى يلبس ثياب العسكرية المشرفة يجلس للقضاء أن يصنع فى زميله ذلك الصنيع الشنيع ؟ الا يخطر بباله انه قد يصنع فيه مثل ما صنع باخيه ؟ !

وقد كان عبد الرحمن مخيون فى مكان منيع بجوار الرئيس عبد الناصر فهل يستبعد أن يقع ذلك على من هو أبعد مكانا ؟

وهنا وجد الدجوى أن قولى قد اثر على الضباط الذين يشكلون هيئة المحكمة .. ومن يدرى فقد يتحمس احدهم فيعارضه فى سياسة القضاء فقاطعنى قائلا :

« ليس فى الأوراق ما يدل على صحة الواقعة ... اريد هذا ولتفضل ترافع فى صميم القضية .

فرددت قائلا :

« **لى رجاء** عند السيد الرئيس هو أن يتفضل بالانصات والصمت فان مهمتى أن اتكلم ... ووظيفته هو أن ينصت . وينصت طويلا ثم يتكلم أخيرا وهو ينطق بالحكم » .

كما اننى ارجو الا يصدر لى أوامر بأن اترك هذا وامسك ذلك . وأن يعرفنى كيف أؤدى واجبى ! » .

وزمجر وثار وقال :

« انا الرئيس الذى أدير الجلسة وادير المحاكمة » .

وســـألته :

« ولو بغير دفاع ؟ »

فـــرد :

« لا . بدفاع يعرف حدوده . ولا يطعن فى جهات رسمية لهـا احترامها » .

« وهل الجهات الرسمية التى ترتكب جنايات التعذيب يمكن أن يكون لها احترامها . انها كالفرد تسمى مجرمة وآثمة ويحقق معها وتؤثم ويحكم عليها » .

وكنت أعرف انه يقاطعنى لكى يضيع على استرسالى فى القول والتطرف ، ويشرد افكارى . فامسكت بأعصابى وتابعت بكل سرعة، اقول :

« **تقول المحكمة** الموقرة » ان التعذيب ليس ثابتا فى الأوراق . وهذه الأوراق لا تتضمن تحقيقا . والقانون أن التحقيق الأصيل الذى له الاحترام هو التحقيق الذى تجريه المحكمة امامها .

وانا اطلب من المحكمة وهى خير من يعرف واجبها ان تؤدى هذا الواجب بالتحقيق فى جناية التعذيب .. »

ثم وقفت وعدت منطلقا فى حركة تمثيلية بارعة اقول :

« **ولكن كيف** أؤمل ان تحقق المحكمة فى جناية التعذيب وهى التى بررت التعذيب بقولها ، ان من يقع ينل جزاءه فماقيش على حجر الثورة غالى ! » .

واحس الدجوى انه وقع فى مصيدة وكانت له قدرة التحول من العبوس الى الابتسام . ومن الغضب الى الممازحة . فضحك وقال :

« **وعلى كل حال انا اعرف انك غالى على حجر الثورة** » .

فقلت له ببرود « شكرا لسيادتكم وللثورة » .

فعاد جادا يقول زيادة فى التأثير على :

« انا اتكلم رسميا . انا اعرف انك غالى على الثورة » .

فرددت بسرعة ممازحا :

« اذن والنبى وحياة الثورة وحجر الثورة تخلينى انتهى من المرافعة بلا مقاطعة » .

فضحك وضحك الحاضرون واستمررت فى المرافعة .

. واستمررت اتحدث عن التعذيب . وهو قضية الحكم وقتذاك وما بعده الى ان يشاء الله ان يمحو ويثبت .

لقد قلت للمحكمة :

اننى لعنت التعذيب منذ أن عملت محاميا .

وكتبت عن وقائعه مع كل متجبر طاغية ولو كان ضابط نقطة شرطة !

ومع الوزراء فى ماضى الزمن منذ اهتممت بالسياسة والوطنية وكل هذا ثابت فى كتابى « المحاماة » ؟

وكان الدجوى يقاطعنى باستمرار فقلت له :

« **لن تستطيع** ان تثيرنى فاقطع مرافعتى . بل سأستمر فى دفاعى ولو أطلقت على قذائفا من المدفعية والأساطيل والطيارات والدبابات ..

ولقد كتبت ما أريد ان اقوله عن التعذيب فى « هذه المذكرة » وسأودعها ملف القضية وستبقى الى آخر الزمان حتى لو افترستمونى أو قتلتمونى .

وقال :

« نحن لا نقتل احدا تفضل » .

. واودعت المذكرة المطبوعة عن التعذيب .

وخرجت من التعذيب الى الجهاز المستحدث فى مصر وهو المخابرات .

* * *

المخابرات :

وترافعت متحدثا عن دور المخابرات فى القضية وانها هى التى لفقتها ، وحققتها ، وهى ليست من سلطات التحقيق . وان وظيفتها الوحيدة هى متابعة الأحداث الداخلية العسكرية والخارجية العسكرية والسياسية .

اما تدخلها فى اجراءات تحقيق القضايا الجنائية التى هى من صميم عمل الشرطة والنيابة فخروج عن القانون . واستحداث لاجراءات خارقة لخط العدالة حيث تتوفر الضمانات للمتهم . مثل

وجود محقق متخصص محايد ، وحضور محـام يحمى المتهم من نفسه وسوء دفاعه ومن غيره .

اما أن تكون المخابرات هى المحقق غير المحايد لأنها خصم .
وهى جهة غير متخصصة فى التحقيق .

وهى غير معترف بها فى القانون ! اى قانون فى العالم كسلطة تحقيق وهى تتخذ اجراءاتها فى الخفاء حيث يسهل اصطناع أساليب تبيح ما لا يباح فى معاملة المتهمين ..

لا . ان هذا شر يجب حسمه ..

يجب أن يسود القانون والقانون وحده !

واحسست أن درجة التأثر قد ارتفعت عند المحامين والمتهمين .. وربما اعضاء المحكمة فيما عدا الدجوى . وهنا قاطعنى الدجوى قائلا :

« المخـابرات سلطة معترف بها رسميا ولها وظيفتها ولها احترامها وهى مشكلة بقانون » .

وقاطعتـه :

« **هل تسـمح** المحكمة بضم قانون المخـابرات الى ملف الدعوى ؟! » .

وسـألنى بحدة :

« ليـه ؟

« **لكى نعرف** حدودها وسلطتها وما لها وما عليها » .
وهنا أدرك انه أحرج وأخطأ فصرخ ورفع الجلسة الى الغد !

* * *

فى اليوم التالى بدأت بالحديث عن المبلغين الاثنين وقلت :

« لقد صدقا فيما رواه كل منهما من ان عبد الرحمن مخيون وحده ـ كان يطبع منشورات ولكنهما أثما دينيا وخلقيا ، وارتدا عن الاسلام ، لأنهما تجسسا وخانا الأمانة وأوقعا بأناس لو وجها اليهم النصح لكانوا كفوا وامتنعوا وتوقفوا ولذلك يحق لنا أن نطالب استبعاد شهادتهما وقد أصبحت وهى غير ذات نفع للقضية .. الكل معترفون باصدار المنشورات .

ولكننا نطالب ابعاد شهادتيهما تطهيرا للقضية وللمحاكمـة من جنس الخيانة والغدر . ومنعا للاغراء حتى لا يخضـع له مصرى سواء للمال أو المنصب أو خوفا فيخـون أخاه ويغدر بصديقه وصاحبه » .

وظللت أهاجم هذا النوع من الناس ، حتى ضج الدجوى وقال :

« يعنى نسيب المؤامرات تهدم ما بنته الثورة ونقول للنـاس لا تشـهدوا » .

وقاطعته بقولى :

« لا .. نفتح النوافذ ونترك الهواء يدخل هـذه البلاد التى حرمت من حرية الكلمة فلا يكون هناك مؤامرات ..

وهنـا صـاح الدجوى ـ ولم يكن قد مضى على فتح الجلسة غير ربع ساعة .

ورددت أنا على صياحه وضاع كلامنا نحن الاثنان فلم يفهم أحد ماذا نقول ورفع الجلسة !

* * *

رهـــان:

وانتقلنا زملائى وأنا الى غرفتنا ـ غرفة المحامين ـ وهى معنى ووصف يضافان الى كل غرفة تعد لجلوس المحامين حيث يتنفسون بشهيق الحرية وزفير الصراحة ، ويتناجون بين جدرانهـا بأخطر ما يقـذف به حاكم ، أى حاكم منذ وجـد الحكم المطلق والظلم والحرية والعدل !

لقد سمعت فى غرفة المحـامين قذفا فى كل حاكم بالحقيقة وبالحق .

ان هذه الغرفة هى رئة الصدور الحبيسة المحرومة من هواء الحرية !

وهرع زملائى يلقموننى مسكنات ومهدئات ڤاليم وترانكيلان .. ولكنهم فوجئوا بضحكة عالية اقذفها فى وجوههم وهم يحسبوننى مضطرب الأعصاب ، منفعلا ! فوقفوا فاغرى أفواههم دهشة وانا اقول لهم :

« من يراهننى على اننى أستطيع أن أسكت الدجوى لمدة تتراوح بين نصف ساعة وساعة » ؟

وضحكوا وقالوا :

« مستحيل » !

« اذن راهنوا فتكسبوا »

وقال صديقى عبد الحميد الساوى المحامى :

« أراهنك »

وظللنا نتحدث ونسمر حتى ذهب عنا الغضب ثم دعينـا الى

الجلسة . وقرأت على وجوه الرئيس والأعضاء وممثل الادعاء انهم اتخذوا قرارا خطيرا لاسكاتى . فأخذت مجلسا فى مواجهتهم قائلا بعد الديباجة وفى هدوء .

« لن أورد لكم أقوال الفقهاء ولا الفلاسفة ، ولا رجال السياسة فى الحرية والعدالة .. ولكننى سأقرأ لكم كلاما مسطورا على ورق وان كان ليس هابطا من السماء .. وليس من القرآن ولا من بلاغة السنة وقول سيد الخلق وامام الأنبياء والحكماء والبلغاء .

ولكنه كلام من وضـع انسان مصرى بشرى ومن اهل هـذا الزمان .

اما الكلام فهو الميثاق .

اما صاحبه فهو الرئيس الملهم جمال عبد الناصر ..

قال فى ص ٨ « بالحرية ومجتمع الكفاية والعدل ..

وظللت أقرأ وأقرأ وأجـود وأغنى ، وأطرب ، وأعيـد بعض الوصلات » وقد تكون لا معنى لهـا على الأقل فى موقفى .. ثم أعود الى أول الثورة ثم الى الماضى البعيـد . ومضت ثلاثة أرباع الساعة وهنا كان الدجوى قـد أنصت ثم انفعل ثم كتم انفعـاله واخيرا استقر على وضع معين هو وضع خده على كفه والنظر الى مكانى بمظهر المستمع ، دون أى تعبير عن انه يسمع أو يعى أو يرضى !

واخيرا نفذ صبره . ووهى احتماله فقاطعنى قائلا برقة :

« ايوه .. الميثاق . احنا كلنا ...

وهنا صرخت فيه صرخة مدوية هزت جوانب المكان كله بل لعلها خلعت بعض القلوب من مكانها وأنا أقول :

« لا . لا لا تقاطعنى ! اننى أقرأ كلاما نورانيا سماويا . ليس كلام بشر انه كأنه تنزيل من التنزيل أو قبس من الذكر الحكيم ! »

وهنا صمت صمتا بليغا . بليغا لأنه صمت المقهور . وحمدت الله على أننى قهرته ، وأجبرته على الاستماع ، وهو مرغم بلعبة صبيانية .

وقام عبد الحميد الساوى مستأذنا .. وقام بعده محام . واثنان .. وثالث .

وكنت أعرف انهم منصرفون لكى يضحكوا ويفرغوا الضحكات التى كتموها ساعة من الزمان .

وكنت قد وصلت الى « أثر الصناعة فى تقدم الجمهورية العربية » ! فقلت :

« كنت أحب أن أظل قارئا ومرتلا . ولكننى أكتفى بما أوجزت . وأرجو أن تسامحونى على هذا الايجاز والاقتضاب » !

ورفع الدجوى الجلسة بغيظ ولم تكن الساعة قد قاربت الواحدة .

لقد حدثنى أحد الزملاء وهو المرحوم المستشار محمد خليل الدجوى رئيس محكمة استئناف بنى سويف وزميلى فى الدراسة الثانوية وفى كلية الحقوق انه كان فى زيارة للفريق الدجوى وتحدثا عن زملاء الدراسة فى مدرسة فؤاد الأول الثانوية وجاء ذكرى فأقسم لى الدجوى المستشار وكان طيبا وذا قلب كبير ، صادق القول ان الفريق الدجوى كال لى المدح والثناء باعتبارى محاميا ولكنه عقب قائلا :

« ولكنه كاد أن يجننى فى مرة يقول الفرق بين مذنب وبرىء . وأعود وأطلب الكتب والموسوعات وأظل أياما ابحث فيها .. ومرة يقرأ لى الميثاق فى ساعة وأنا مرغم أن أستمع .. شربوا لى حكمة حتى الصناعات والزراعة .. »

وبهذه المناسبة — مناسبة هذا التعبير — أترك الرافعة قليلا لأتحدث عن ظاهرة سياسية ، أو اجتماعية — أو اجرامية — أو حكومية وهى محاولة الايقاع بالأبرياء فلقد لاحظت على طول تجربتى فى القضايا السياسية أن الحكومات « البوليسية » .. التى تقوم — بدعوى الاصلاح السياسى أو الاجتماعى .. الخ هذه الأكاذيب — تقوم على القمع والضرب والتنكيل وتعمل على الابقاء على جهازا المباحث أو المخابرات أو البوليس السياسى والحفاظ على الأرزاق التى يكسبونها عن طريق ايهام الحاكمين الظالمين بترصد الأخطار لهم وللابقاء على نظام الدولة البوليسى .

ومن أهم ما تقوم به هذه الأجهزة الاندساس بين الناس والانبثاث فى صفوف الطوائف بواسطة « مرشدين » أو عملاء وقد انكشف فى عهد عبد الناصر أشخاص من جميع الطبقات — ومن أعلى المستويات .. العليا . ومثلا حين أخذت الى مقر المخابرات العامة وحققوا معى فى فبراير سنة ١٩٦٧ قالوا لى :

١ — ان لديهم ملفات تملأ غرفة عن تسجيلات أحاديث لى سواء مكتوبة فى تقارير وصفوا أصحابها بانهم من أقاربى ومن أعز أصدقائى ! أو تسجيلات على أشرطة .

٢ — عندما أخذوا يناقشوننى فى بعض هذه الأحاديث اتضح لى أن أكثرها صحيح وأن القليل جدا منها وهو منسوب الى يشابه ما أقوله دائما .

وعندما تكثر الأحاديث المنسوبة الى شخص معين يوضع أولا فى قائمة الخطرين !

وبعد ذلك يكون التفكير فى التخلص منه . فاما اذا حسن حظه فانه يؤتى به الى سجن احدى هذه الأجهزة ويضرب « **علقة** » كثيرا ما تكون كفيلة باسكاته !

وبعضهم يهدد ويحذر ـ ان كان له ((ضهر)) أى ظهر أو قريب يحميه .

أما من ساء حظه فاما أن يضرب حتى تزهق روحه ويدفن فى الصحراء وكم دفن فيها أبرياء بعد تعذيب كان موتا بطيئا لأيام أو لساعات .

وقد يكون اصطناع المؤامرة كما حدث فى القضية الكبرى ((قضية الاخوان المسلمين)) سنة ١٩٦٥ .

فقد كانت هناك فى مكان من المدن والقرى شعبة مكونة من عدد من المسلمين الذين يجتمعون ويقرءون ويتبادلون المناقشات والتفسير والفهم فى القرآن والعقيدة والسنة . ولم يكونوا من الاخوان .

حتى ان بعض هذه الشعب سأل المرحوم الشيخ عبد الفتاح اسماعيل الذى أعدم مع المرحوم سيد قطب عن حقيقة الجماعة التى ينتمون اليها ((هل هى تابعة للاخوان المسلمين ؟)) أم ((للشبان المسلمين ؟)) أم ((لأنصار السنة المحمدية ؟))

فرد عليهم المرحوم عبد الفتاح اسماعيل ((وماذا تريدون من العنوان ؟ ان المحل التجارى لا تهم فى شأنه اللافتة المعلقة على مدخله ـ وانما المهم البضاعة الموجودة فى الدكان)) .

وفجأة جمعوا بين هذه الشعب التى تجتمع منفردة ، وبلا ارتباط ، ولا اتفاق ، ولا تعارف ولا هدف ـ وانما لكل شعبة منها هدفها وهو الاستزادة من الثقافة الدينية وجعلوا منها مؤامرة كبرى يقوم بها الاخوان المسلمون !

حدث هذا فى فرنسا فى وقت من الأوقات وفى غير ظروف أو أسباب سياسية . وانما فى قضايا عدة حين كان يريد البوليس الوصول الى عصابة خطيرة أو مجرم جبار فقد لجأ رجال البوليس

الى دس واحد من عملائهم فى وسط العصابة ، ويكون معهم بارشاد البوليس اتفاقا جنائيا على ارتكاب جريمة وقد ضبطت العصابة وقدمت الى المحاكمة .

فلما ظهرت هذه الوقائع أصدر القضاء الفرنسى حكما عادلا قال فيه :

((أن مثل هذه الجريمة هى جريمة مصطنعة صنعها البوليس وزج بالمتهمين فيها فكانت ارادتهم معدومة أو ملحقة ومسيرة بارادة البوليس وكان سلوك البوليس غير أخلاقى وقضى بالبراءة .

وصدر مثل هذا الحكم من محكمة جنايات مصر مرة واحدة .

وكم دفعنا ودافعنا بهذا المبدأ القانونى فكانت أصواتنا أضيع من بكاء اليتامى فى أفراح الطغاة !

متى تنتهى هذه المحن التى عمت وطمت فى مصر ؟ ، وهدمت حصن العدالة ، وجعلت الناس سنين طويلة حيارى سكارى وما هم بسكارى ، ولكن ضربات الطغاة كسرت من كيانهم المفاصل، ونزفت من شرايينهم الدماء ، وملأت نفوسهم هلعا وقلوبهم جزعا فهم أموات أحياء ، أو أحياء ولكن لا ينبضون بالحياة ولا يرزقون!

نعود الى المرافعة :

حب وكراهية :

قال عبد الرحمن مخيون فى منشوره مخاطبا عبد الناصر .

((هل تعلم انك مكروه من الناس)) .

واننى ساضع سؤالا :

واطلب الاجابة عليه فى حكم المحكمة الموقرة .

هل جمال عبد الناصر الآن وهو رئيس أعظم جمهورية فى الشرق الأوسط وصاحب أقوى جيش ومالك أضخم أسطول جوى وأكبر

اسطول بحرى .. وترتعد من صيحته فرائص الدول الكبرى . هل جمال عبد الناصر يدور وهذه قوته فى فلك الحب والكراهية ؟ !

أم أنه يدور فى فلك العظمة والمجد والقوة والسلطان والجاه .

فلا يسأل سائل « هل هو محبوب او مكروه » أم يسأل السائلون « هل هو منتصر ؟ هل هو أقوى من فرنسا وانجلترا ؟ هل هو أعظم من صلاح الدين ومن محمد على ومن ابراهيم باشا ؟ هل هو أذكى وأحسن حظا من عرابى ؟ هل هو أشد تأثيرا وأحكم قيادة من سعد زغلول ؟ »

هذا هو الفلك الذى يدور فيه عبد الناصر .

أما الكره والبغض فمجاله ومدار النقاش فيه عن الفنانين الذين يدورون فى فلك الاعجاب بأصواتهم أو بأجسامهم أو بتعبيرهم .

والحاكم فى عهد الديموقراطية ليس مهيئا للبقاء الدائم ، ولكنه ينتخب وقد لا ينتخب ، واساس انتخابه أو عدم انتخابه هو رضاء الشعب أو عدم رضائه .

والرضاء عن الحاكم عاطفة والحب عاطفة أخرى .

فقد أكون راضيا عن الحاكم لجلائل اعماله ولكننى ابغضه لشخصه ، فان السياق الخفى الذى يجرى بين شخص وشخص ويكون الحب والكره غير منظور ولا يعلل وجوده او انقطاعه . وقد أكون ساخطا على الحاكم لسوء سياسته ولكننى أحبه لنبالته أو مروءته أو خلقه . أو خفة ظله .

وختمت مرافعتى فى هذه النقطة المهمة قائلا :

« لو يطاع لقصير رأى لسألتكم الا تحكموا على عبد الرحمن مخيون لانه يقول عن عبد الناصر انه مكروه . فان الحب ليس جريمة والبغض كذلك وانما هما عاطفتان . ملكية الفرد لهما

لا ينازعه مخلوق فيهما ، ولا يجبر عليهما مهما كانت ظروف الحال» .

انتهاء المرافعة وعودتها :

بعد أن ترافعت يومين ختمت مرافعتى بتوجيه كلمة شكر فيها شىء من السخرية لسعة صدر المحكمة ودعوت لها بالتوفيق دعوة عباراتها فيها قسوة لأن فيها تلميحا بأن الحكم معد وان الأمل فى وجه الله وحده . واعتقد أن الدجوى فهم مرمى الكلمات ولكنه ابتلعها وهز رأسه شاكرا بعبارة تقليدية .

وبعد يومين غبتهما عن المحكمة ترافع فيهما زملاء عن متهمين آخرين وكان زميلى الأستاذ الكبير محمد عبد الله قد ترافع . فوجئت عند عودتى من غيبتى بالدجوى وهو يستمع الى أحد الزملاء وهو يترافع يرانى فيخاطبنى بصوت عال وبشماتة قائلا .

« يا أستاذ شوكت .. زميلك الدكتور محمد عبد الله قال لنا امس ان هناك مبدأ ينادى باهدار حق الصمت » .

وصعقت وقلت فى نفسى « لماذا تقول يا محمد مثل هذا الكلام لمثل هؤلاء الناس ؟ »

انهم ما أن يسمعوا مثل هذه النظريات حتى يتعلقوا بها ويجعلوها شريعة مقدسة .

ولكننى رددت قائلا :

« هناك مبدأ يبيح الشرك بالله ، ومبدأ يقول بأن الغاية تبرر الواسطة ، وهناك قوم يعبدون النار ويقدمون لها قربانا من البشر فهل معنى وجود أى مبدأ من هذه المبادىء حتمية الأخذ به ؟ » .

وهذا ما قصده زميلى الأستاذ الكبير محمد عبد الله فى بسط القول ومناقشته .

ولا شك عندى مطلقا فى ان محمد عبد الله وهو محام فاضل يلعن مثلى اهدار حق الصمت ، كما يلعن التعذيب ، والاذى والاعنات . واعتقد ان المحكمة معنا فى هذا الراى .

ويكفى أن الرسول الأمين صلوات الله عليه سأل رجلا جاء له برجل معترف بانه سرق قائلا « احملته على ذلك ؟ » أى هل أجبرته أو ضربته فاخفته فاعترف .

واخيرا لنفرض يا سيادة الرئيس ان مليونا من الناس قالوا بشرعية التعذيب للحصول على الاعتراف والاستكراه للاقرار هل قررت المحكمة الاخذ بهذا المبدأ فنسحب اقوالنا واوراقنا ونقول لكم سلام عليكم طبتم ؟

فلم يرد . وتابع سماع المرافعة وجلست وزملائى مشفقون على .

وفى اليوم التالى قدمت مذكرة تعليقا على هذه العبارة .

وصدر الحكم كما لم نترقب .. الأشغال الشاقة المؤبدة لعدد كبير من المتهمين والسجن للبعض الآخر وكأنما سطرت الحكم يد المخابرات التى خلقت القضية خلقا !

ولم نملك الا أن نقول « لا حول ولا قوة الا بالله » .

عاهدت نفسى :

بعد أيام هذه المحاكمة . والحكم فيها .

وما عثرت عليه فى ملف الدعوى من مآسى التحقيق .

وما سمعته من المتهمين عن جحيم التعذيب .

وما لمسته من تلفيق وتزوير للايقاع بالابرياء .

وبعد ما لقيته أثناء المحاكمة من رئيس المحكمة من اعنات ، وهياج وصراخ . ومن صمت العضوين وكأن الامر لا يعنيهما .

وما لاحظته من خوف زملائى مما عسى أن يقع عليهم من غضب الجبار الذى لا يرحم حتى نسوا شجاعة المحاماة فى صراعها مع الحكام السابقين ومع المحتلين البريطانيين ومع الطغيان أيا كان اسمه .

وكذلك خوفهم على من سوء المصير ، وعلى صحتى من آثار الانفعال العنيف المتواتر ، والتوتر المتصل لحظة بعد لحظة .

وبعد ما تبين لى أننى ان كنت محاميا امارس فنى الرفيع امام قضاء ، فليس هذا بقضاء . وأن أكتفى بقضائنا الذى ألفناه وعرفناه ومرسنا بأساليبه وتمرس بأساليبنا .

واننى لاذكر اقواما كراما من رجال القضاء المصرى اضرب بهم مثلا الاستاذ الكبير عبد العزيز محمد واحمد حلمى باشا ، ومحمود توفيق اسماعيل وضياء الدين صالح . وقد وقعت بينى وبينهم مشادات عنيفة . وبالرغم من حدة طبعى حين استشار . مع اننى طوال عمرى لم ينسب الى اننى اعتديت على قاض أو محام الا اذا استثرت . فانهم هم كانوا أصحاب الفضل فى المبادرة بالاعتداء ، بل اننى لو أردت ان أكتب مجلدا على كمال التعاون ، وجمال التعاطف بين القضاة والمحامين على مر التاريخ لانتهيت الى تصنيف مجلد ضخم . وكذلك يؤلف مثله كثيرون ممن حضروا مواكب القضاء والمحاماة على طريق القرن العشرين .

بعد استعراض هذا جميعه قررت أن لا احضر امام محاكم الدجوى ولا المحاكم العسكرية ولا اى محكمة استئنافية . وأن أرتضى ما قسمه الله لنا من محاكم هى « الفاكهة المرغوبة » مهما تغير لونها ، أو اختلفت حلاوة ومرارة أو تباينت حجما ، او عثرنا فى وسط أكوامها بواحدة ضرب فيها الفساد .. فهى فاكهة وقد تكون كلها صالحة حلوة المذاق ، طيبة المنظر ، زكية العطر .



الفصل الثانى

نحن الآن فى ١٩٦٥ :

الزمن قد اشتد ظلامه ، وكثر الظالمون فيه ، وتعددت المظالم فى أرجاء البلاد وبلغت الأرواح الحناجر ، ووهى الصبر ، وتمنى الناس الموت .

وكانت آية هذه المظالم - التأميم - والحراسات والاعتقالات وقوانين الاصلاح الزراعى . وأخيرا محاكمة الأبرياء ..

وخرست الاقلام فقد طرد الصحفيون ذوو الاقلام الحرة ، وقبض على مصطفى أمين صاحب أخبار اليوم . بتهمة التخابر مع دولة أجنبية وحوكم وحكم عليه بالأشغال الشاقة .

ما أشبه هذا الزمن بالأيام الأخيرة من حياة كل طاغية . ولقد اذكر ولا انسى ما قراته واثبته فى كتاب جهاد الأمم فى سبيل الدستور لى سرد تاريخ الدستور التركى فى الأيام الاخيرة من حياة الطاغية السلطان عبد الحميد اذ يقول المؤرخ الفرنسى لهذه الفترة وكان يعمل فى سفارة فرنسا فى استمبول ، وهو يصف الذعر الذى استحوذ على الخلق من شيوع الجاسوسية « ان كل انسان كان يعتقد ان كل ظل جاسوس ، وكانت اشباح الأشجار تمثل للرائى الجواسيس يتربصون ، وكان كل واحد من سكان تركيا يحسب زميله او صاحبه او اخاه او ولده او اباه جاسوسا . فلو انك اعتبرت الشعب التركى كله جواسيس لم تكن مغاليا . ولكن لك بعد ذلك أن تسأل « وعلى من يتجسسون اذن ؟ » » .

فى هذا الوقت كان يجب أن يصرخ انسان مصرى له صوته بكلمة الصدق والحق ، كلمة اما أن تردع الحاكم الظالم ، أو تخيف اعوانه ، أو تبث روحا من الشجاعة فى افراد الشعب . ولو فى قلة مؤثرة من هؤلاء الأفراد .

ولكن كيف يمكن أن يكون السبيل ؟

ان الصحف كالقبور فى صمتها لا يقرأ فيها الا التسبيح بحمد (فرد واحد) وتعداد مآثره ، والتغنى بآثاره كتأميم قناة السويس والسد العالى وحرب اليمن والوحدة العربية وَقهر الاردن وأمريكا وانجلترا وتخويف دول افريقيا !

والمنشورات مهما انتشرت على صعوبة توزيعها فى بلاد تقوم فيها حكومة بوليسية وجهازات التجسس لديها متنوعة على اشكال تحير فقد مستها التكنولوجيا .

الخطابة ؟. أين ؟ ؟ وكيف ؟

وقلت فى نفسى لم يبق الا المحاكم . اما فى حكم قاض جرىء أو فى مرافعة محام فدائى !

وانتظرت حتى يحقق لى ربى الفرصة الذهبية فاقول قولة الحق . وانبه الطغاة وأوقظ النيام ولو كان فى ذلك حتفى ، وفيه نهايتى !

وتوكلت على الله وصممت على أن أحاول أن « أنال متهما » لكى أترافع عنه لكى أقول ما يشاء الله أن أقول وليكن بعد ذلك ما يكون . وذلك ولو بأن أسعى الى أهله متطوعا . وكانت أول مرة أرضى لنفسى فيها ذلك طول حياتى فى ساحة الدفاع .

وفيما أنا كذلك جاء ثلاثة يوكلوننى فى قضية لم اكن قد سمعت بها . وهى القضية التى عرفت فيما بعد بقضية « حسين توفيق » .

وعرفت أن حسين توفيق الذى قتل امين عثمان بدافع الوطنية الخالصة قد اتهم فى تأليف جماعة لقتل عبد الناصر .

وتعجبت من ذلك فقد كان مدى علمى أن حسين توفيق قد اتهم بمحاولة قتل الشيشكلى احد مدمرى سوريا وواحد من اصحاب الانقلابات العسكرية وقد حكم عليه بالاعدام . وتوسط عبد الناصر حتى تبدل الحكم بالاشغال الشاقة .. ثم هرب حسين توفيق - وقد ظهر من اقواله فى التحقيقات أن عبد الناصر هو الذى عمل على تهريبه . فلما قدم الى مصر عينه فى احدى الشركات « شركة شل » بعد تأميمها بمرتب ١٥٠ جنيه شهريا . ولا شك ان ذلك كان صنيعا من عبد الناصر أعطى حسين توفيق حياته عدة مرات ، مرة بالعفو عنه فى مصر من حكم الـ ٩ سنوات ، ومرة بابدال حكم الاعدام ثم بتهريبه ثم بالوظيفة العالية .

ولم اجد وقتها تفسيرا .

وقد جاءنى أحد افراد عائلة العبد المشهورة فوكلنى عن متهم اسمه زكريا العبد ، وقبلت فورا المرافعة والاتعاب . وجاءتنى سيدة توكلنى عن زوجها المهندس محمد سامى عبد الحميد وبعد ان قبلت الدفاع والاتعاب عرفت انهـا ابنة خالة اصهارى زوج [illegible] **. ثم جاءنى اللواء طيار حسن محمود وهو احد رجال الطيران المصرى العظام وكان ملحقا عسكريا بسفارة مصر فى لندن ولكنى اعرف أن الحكام رشحوه فى وقت من الاوقات وزيرا للحربية** [illegible] عدلوا عندما ادركوا انه ضابط له كرامته وشخصيته . [illegible] قد تعرفت به من زمن طويل - **ربما فى اوائل الاربعينات مع جمال سالم حينما كنا نعمل ضد القوات الانجليزية فى مصر والتى** [illegible] **فى وسط التدبير بالقبض على انا والنبيل** عباس **حليم**

والزميل العزيز دكتور حسن عارف المحامى والأستاذ محمد رشدى حمادى المحامى وقتئذ معى بمكتبى والآن مستشار بمحكمة الاستئناف وعبد المقصود حسن صاحب مطبعة حليم . وظللنا فى السجن يحقق معنا النائب العام عبد الرحمن الطوير باشا وبعد ان أفرج عنا ببضعة أيام قبض على فى قضية الطائرة التى نسبت ظلما لعزيز المصرى باشا واضطر هو والطيارين الى الهبوط . والذى كان وهما من الأوهام التى شاعت فى هذا البلد .

وقرات الملف واسرعت الى اقوال حسين توفيق .

وسرد ما صنعه له عبد الناصر وهو ما سردناه آنفا . ثم قال :

« ولكننى رأيته قد تنكب الطريق ، وأخذ يسىء الى بلادى التى ضحيت حياتى من أجلها فاننى لم أقتل أمين عثمان لأننى كنت صاحب ثأر عنده ، ولا اغتصب منى مالا أو عرضا ولكننى قتلته لأنه أساء الى بلادى وكنت مؤثرا بلادى على نفسى فقد كان احتمال القبض على ومحاكمتى واعدامى احتمالا يكاد يكون مفردا لا احتمال آخر معه .

فوازنت بين ما صنعه لى عبد الناصر وما اوقعه ببلادى التى احبها فعزمت على أن أرد له حياتى بان أموت فى سبيل تخليص البلاد منه » .

وتمنيت لو اننى وكلت عن حسين توفيق .

ولكننى قلت اننى باذن الله وبسلطان منه قادر على أن أقول كل شىء وأنا اترافع عن هؤلاء الثلاثة الذين يعتبرون متهمين ثانويين .

اعلان محزن !

أعلن فى الصحف خبر قضية حسين توفيق وجميع تفاصيلها مع عبارات الاستنكار ولفت ذلك انتباه العالم .

ولكن الذى لفت نظرى ما نشر من أن القضية ستنظرها دائرة [illegible] برئاسة الفريق أول « محمد فؤاد الدجوى » .

الآن فقد عدنا الى جولة أخرى .

ومن العجيب اننى رحبت بهذه الجولة وما يكون فيها من صراع [illegible] وخاصة عندما قرأت انها ستنظر فى جلسات علنية . [illegible] ان يكون بطل المحاكمات هو خصم صراعى وهو الذى يختاره [illegible] لكل قضية هامة لكى يعطى صورة مشوهة للعدالة وصورة [illegible] الظلم العهد كله .

وان الشجاع هو الذى يتخير خصما شديدا صلبا ولا يرضى [illegible] الضعفاء ، والدجوى وان لم يكن قويا فهو يتظاهر [illegible] .

ولعلنى فرحت لأنه كان سريع الاندفاع قريب الوقوع فى الخطأ . [illegible] استطيع النفاذ منه الى التصريح بما أنتوى مواجهة [illegible] .

ولعلنى اشفقت على صحتى وأعصابى من قسوة الصراع .

وسألت الله التوفيق . وتوكلت عليه انه نعم المولى ونعم [illegible] .

[illegible] :

[illegible] شقيقى وزوجتى واولادى وأوضحت لهم ما وقع من [illegible] فى قضية حسين توفيق .

[illegible] لهم ما خفى عنهم مما فى نفسى . وقلت لهم « اننى [illegible] وهو المصارحة علنا بما هو واقع فى البلاد من كروب [illegible] وكوارث . وحتما سيقع على مكروه أن ركب أحدهم رأسه

وعاقب محاميا يترافع فى قضية كبرى هى قضية بلاده فى مرافعة عن افراد من الشعب الذى ابتلى بعذاب الله وهو معروف لسكان مصر .

ولم يكن عبد الناصر ليفرق بين اداء الواجب وبين الولاء للنظام . وله تقدير لكلام الناس وتصرفاتهم فى ميزان اعده للخضوع له والاخلاص للحكم الذى قسر البلاد عليه . وبعد شرحت لهم الموقف قلت لهم ان ماسيقع على سيتعدى اثره اليكم بحكم الشيوع فى املاكنا ، والروكيه فى حياتنا ومقتنياتنا ، وما هو معروف من تضامننا فى كل امر وكل عمل .

وردوا على جميعا قائلين ما قال سعد بن معاذ أمير الأنصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم لو خضت بنا البحر لخضناه معك ولن نقول لك ما قال بنو اسرائيل لسيدنا موسى (اذهب انت وربك فقاتلا انا هاهنا قاعدون) ودعوا لى بالتوفيق .

وقد كنت ممزق الفؤاد بين هذه الحماسة وبين ما يحتمل أن يقع عليهم . وقد كان شقيقاى متمرسين بهذه التضحيات لأن كانت حياتنا منذ عرفنا الجهاد الوطنى كلها تضحيات ولم ننل عنها ولو كلمة ثناء . أما أولادى وزوجتى فلم يعرفوا الا الايام المرة من جراء تطبيقات قوانين الاصلاح الزراعى وتعسفاته والاستيلاءات والمطالبات فبدا عليهم الجزع ولكن حماسة الشباب وتقديرهم لرشادى وجديتى فى كل تصرفاتى ـ على قدر استطاعتى ـ وعلى قدر نيتى ، جعلهم يزيلون جزعهم ، ويبدون استعدادهم لتحمل التضحيات . وان كانوا قد ناءوا بها من بعد ذلك وثقلت عليهم وطأة الأحداث ولو انهم صمدوا لها صمود الاقوياء واحتملوها بكرامة وشجاعة وصبر وحسن تأسى . دعونى احيى زوجتى الكريمة النبيلة واولادى الشجعان على صبرهم الجميل على سوء الحال .

يوم المحاكمة



مكان المحاكمة :

اخذت طريقى الى مكان المحاكمة .

والعهد بنا وبالناس جميعا أن يقصدوا دار « المحكمة » ولكن الأمر اختلف هنا فمكان المحاكمة لم يكن دار محكمة .

والمحكمة فى طراز بنائها ، وفى المصالحة على تسميتها محكمة ، والتعبير بها . والتميز بموقعها جزء من تحقيق العدالة فانت اذا شكاك خصمك الى قسم الشرطة ودعيت الى هناك يفرض الهلع نفسه عليك وتحس بالخوف اما اذا دعيت الى المحكمة حيث يتصور الانسان بلا ارادة انها مكان لميزان العدالة . والميزان له كفتان يوضع كلامك ودليلك وحجتك فى كفة . ويوضع فى الكفة الأخرى دفاع خصمك ودليله وحجته . وهذا الميزان الذى لا يعرف من الخصمين الا الدليل . ولا ينظر بعين الحب والرحمة الا للمظلوم دون الظالم ، هذا الميزان هو الذى يحكم لمن الحق بجانبه على من عليه الحق . هذا المكان الذي اختاره الحاكم للتخويف . لا لاجراء الوزن الحق فقد كان بناء مقر الثورة ! مجلس قيادة الثورة !

محاكمة فى مقر الثورة ! وليس فى المحكمة .

ان هذا يبعث فى نفوس المتهمين الخوف والجزع وترقب سوء المصير .

والمفروض أن تكون جميع الاجراءات التى تتخذ للمحاكمة باعثه على الاطمئنان لتحقيق العدالة . مزيلة لأى شعور بالخوف ، نافية لكل شك فى تحقيق دفاع المتهم بكل السبل والوسائل .

لقد مرت هذه الخواطر على بالى وطوفت بذهنى وسألت لماذا اختاروا هذا المكان ..؟ ولم اجد جوابا الا انه لون من التعذيب ، التعذيب الذى حلا فى مذاق الحاكمين فاذاقته للمحكومين أبرياء كانوا أو مذنبين !

وما اشرفت على الجزيرة الخضراء حتى ذكرت ليالى وأيامى فيها وكيف كنت اعشق هذا المكان حيث يشبه عند افتراق النهر فرعين كأنه صدر الحسناء يتصدى لعين الحبيب .

ولقد كنت اختاره مع أصدقائى — لاصدقائى — الحميمين مثل المرحوم حسن عارف حيث كنا نقضى الساعات فى أحاديث جادة عن الأدب . عن السياسة ، عن العواطف ، عن كل شىء . كم تطارحنا فيه شعرا وكم نظمنا شعرا . وكم حللنا من احداث وآراء ومبادىء ، وكم عملنا مبضع التشريح فى رجال ، فهذا امعة ، وهذا وهم ، وهذا منظر ومظهر ، وهذا محيط ثائر ، وهذا نهر هادر .. وهذا جدول رقيق ..

لقد كنا نعيش ساعات نذهب ونجىء ، ونلف وندور بغربنا المكان .. ماء ، وخضرة ونسيم وروح ، وخيال وشعر وتحليق فى السماء .. ونيل .. ! ما اجمل النيل وما اعظمه ! وما اغزر ايحائه .

كم قضينا ليلتنا حتى الفجر .. ونحن نتناجى بالجد من القول . كم خططنا لمصرنا العزيزة وكم رسمنا لمستقبلها وكم بكينا على حالها .

فى هذا المكان كم تحدثنا فى الله ولله . كم لاقيناه وواجهناه بأخطائنا ومعاصينا ، وبذلتنا واستغفارنا ، كم رددنا كلامه اصدق

... وكم بكينا ندما وكم وجدناه هنا .. فى هذا المكان ... غفورا رحيما .

... نرتل قوله تعالى « الا تحبون ان يغفر الله لكم » ونناديه ... الله . نتضرع يا مولانا .. فاغفر وارحم واعف يامن لا يغفر ... الا انت يا غافر الذنب يا قابل التوب ..

... ذلك فى الأربعينات وكنا نشكو ظلم الحاكمين !!

... نشكو الآن وماذا نسمى ما يقع اليوم ؟ « ظلما ؟! لا .. ... الكلمة قد أصبحت أصغر وأحقر وابسط واضأل مما يقع ... الظالمين !

... السيارة بى عند باب قصر الثورة التى حلت محل ... المجور » وكان حينا عشا لفاروق وحينا مرقدا وفراشا ... !..

... ان أضع سيارتى فى مكان فى مواجهة المبنى وعند سور ... النهر . واذا بالجند وهم من الشرطة العسكرية يجرون ... يأمروننى بكل صلف وعجرفة ان انقل السيارة بعيدا .. ... عند اول الشارع . وسألتهم وما الضرر فى وقوفها ؟ وردوا ... !

... هذه هى الأوامر !

... أوامر من ؟

... لزوم للسؤال والجواب .. ارفع السيارة أو نرفعها نحن ... !

... سيارتى وأردت ان أوقفها عند نهاية الكردون ... واذا بجند من البحرية يأمروننى ان ابعد السيارة عن

مرسى باخرة نيلية – كنت أعلم انها كانت ملك نازلى ملكة التى جعلت عرش مصر قوائمه الدعارة والبغاء ، فاذا به الى حيازة المشير عبد الحكيم عامر ! . ونقلت سيارتى الى الشارع أمام الكازينو ! وحمدت الله ان صاحب الكازينو لم من جديد بنقل السيارة ! ومشيت وأنا احمل ملفات القضية نصف كيلو وظللت امر من كردون الى كردون وفى يدى وكارنيه النقابة والبطاقة التى ارسلت الى باعتبارى محامي القضية .

وكلما اردت أن ادخل من باب حولنى الجند الى باب حتى وصلت الى سلم ضيق ارتقيته فوجدت حرسا مضروبا يموج بعضهم فى بعض وعلى اليسار غرفة المحامين وعلى غرفة المدعى ثم المداولة وأخيرا الجلسة .

ورجعت ذاكرتى القهقرى وبدأت أسأل نفسى بما أية غرفة من هذه كانت تحترق العفـة ؟ وفى ايهـا كانت **الخلاعة ؟ ومذابح الأعراض ؟**

يا للدار التى اتخذت محكمة .. كانت .. واصبحت من فرق بين الدعارة وبين الظلم على الأقل عند الله .

ورحب بى الزملاء وكأنما احسوا بالدفء والاطمئنان محام يعمـل جاهدا على أداء الواجب كاملا بغير خوف ولا

واحسست أيضا بترحيب الجمهور وبدا المتهمون للسلام على ومعظمهم يعرفوننى منذ قضية امين عثمان السيد عبد العزيز خميس الذى كنت أترافع عنه فى السابقة منذ قرابة عشرين عاما . وهـذا حسين توفيق سعيد توفيق .. وهذا الأميرالاى محمد يوسف الذى كان للبوليس السياسى ولطالمـا كان يطـاردنا أيام الوفد العشرينات وأوائل الثلاثينات . وهؤلاء موكلى الثلاثة .

وكان الاحساس المشترك بين الجميع من محامين الى جمهورهم أهل المتهمين وعلى رأسهم والدة حسين توفيق واخواتها وجميعهن من السيدات الفضليات وأزواجهن باشوات ومن ذوى المناصب التى تسمو ذروتها بعلمهم وكفاحهم . وهذه زوجة حسين توفيق السورية .

كان الاحساس المشترك هو التفزع من وجود الدجوى عـلى رأس المحكمة !

وكان هـذا الاحساس مثيرا لرغبتى فى المحاربة والمنـازلة والمناضلة .. ان حق المتهمين مضيع مسبقا . لقد نسخت الطمأنينة من قلوب المتهمين وأهلهم ، ورثى الشعب لمصائرهم وغشى المحامين يأس قتال وضاقت صدورهم وقدروا أنهم سيلتزمون جانب الصمت عن الافضاء بما يجب أن يقال ، وسيضطرهم الموقف الى أن يقولوا مالا يؤمنون به .

وهكذا يغير المكان من تصرفات البشر ويؤثر فى انفعالهم ويحول بهم من حال الى حال !

وهكذا يكون وجود رجل واحد مبعث الفزع فى نفوس الآلاف

وما أشد الفزع وأخطره عندما يكون الرجل الواحد هو موئل الأمل ومأمن العدالة !

وفتحت الجلسة :

والقى الدجوى نظرة فاحصة على المتهمين والمحامين وكل من كان فى القاعة .. نظرة فيها استعلاء وشموخ وكبرياء وتهديد . وتحـد لا لهؤلاء النفر القليل ولكن للعدالة وللانسانية وللبشرية جمعاء !

ولمـا وقـع نظره على أحسب بيقـين انه لم يسر . بل انه عبس وبسر . وانه وقع فى نفسـه حزن وكدر ، لعله بادلنى نفس شعورى بل قارضنى – بصورة نفسية خفية – الرغبة فى التحدى

واثبت كل محام حضوره مع موكله ذاكرا اسمه . وكان كعادته يحاول أن يجعل كل محام يكرر اسمه بالايماء بانه لم يسمع حتى اذا ما جاء دورى عن المتهم السابع والثامن . ثم الرابع عشر حملق فى وكانما استكثر ان اكون موكلا عن ثلاثة من المتهمين :

وعندما استقر الحاضرون اخذت اجيل نظرى فى القاعة .

اول ما لفت نظرى وجود اكثر من آلة تسجيل ، ثم حبال كهربية ممدودة من ميكروفون فى القاعة الى آلة فى غرفة المداولة ذلك مع وجود كاتب الجلسة المدنى يكتب ويثبت . والمفروض اما ان يكون هذا الكاتب موجودا او آلات التسجيل التى تغنى عنه .

ثم رأيت العضوين العسكريين احدهما بحرى والآخر طيران ، وهما كما يكون زملاؤهما دائما صامتين لا ينفعلان ، ولا يبدو انهما مشتركان فى المحاكمة لا بالنظر ولا بالسمع ومع ذلك فهما مستيقظان لا تغمض جفونهما .

اما الادعاء فقد كان يمثله نخبة من رجال النيابة العمومية !

وقد اشفقت عليهم وقلت ان كانوا يؤدون واجبهم لانه مفروض عليهم ، فما اتعس حالهم وهم قضاة ويدركون ما فى هذه القضايا من ظلم ومخالفات للقانون وخرق للناموس وللاعتبار الانسانى ومناقضة لحقوق الانسان وتمزيق لمواثيق هذه الحقوق .

وهم يقولون بما لا يؤمنون او يوقنون بعكس ما يدافعون عنه وما اشد بؤس ذلك الانسان الذى يؤدى واجبه وهو مؤمن بضد ما يقول ويستنكر ما يعمل . ويود أن لو لم ينسب اليه تصرفه .

وان كان مؤمنا بنظريات الضرب والتعذيب واستنطاق المتهم والشاهد واهدار حق الصمت الذى يملكه كل انسان فهو اشد بؤسا واتعس نفسا واشام مالا ومصيرا .

ان الايذاء محرم دينا وخلقا وطبعا ، وفطرة اذا وقع على حيوان او دابة او طير أو حتى شجرة . فاذا كان هذا الايذاء تعذيبا على بنى البشر يتفنن فى اساليبه الذين يوقعونه حتى اصطنعوا آلات تخترع وتصنع وتجرب لهذه الغاية فقط ولا تستعمل فى شىء سوى التعذيب ! فالمصيبة اعظم .

وادركت من النظرة العابرة على الحاضرين ان نصفهم أهل المتهمين لأن كل متهم مصرح له بتذكرتين اما النصف الآخر أو أكثر عددا فمن رجال الأمن — مخابرات — مباحث — شرطة عسكرية .. وغيرهم فقد اتضح من بعد أن هناك مخابرات على المخابرات ومباحث على المباحث . واشياء لا نراها ولا نعرفها وهى عنصر من عناصر موتنا او حياتنا .

وعرفت ذلك من استنتاجات اولها انه لا بد أن يكون لهذه الجهات عيونا على المحكمة وعلى المحامين وعلى المتهمين واهلهم وثانيها ان اهل المتهمين يثبون الى الحديث معهم واهدائهم السجاير والحلوى وكلمات التشجيع وفى أثناء انعقاد الهيئة يتبادلون النظرات والابتسامات أو الدموع ، وثالثها ان هؤلاء المبثوثين فى سن يتراوح بين الثامنة والعشرين والخامسة والثلاثين واحيانا يكون من بينهم واحد او اثنان اكبر قليلا .. هذا المجموع من الناس يرتدون أفخر الثياب وفيهم وسامة ويتقاربون فى العمر .. هم بلا شك يمثلون فئة ضباط المخابرات والمباحث .

وقد صارحنى احدهم وأذهلنى حين ابتسم لى وسألنى مشيرا الى الهلال والنجمة النحاسيتين المثبتين فى الطرف المكسو بالفرو الابيض والملتصق بالروب الأسود وهو روب المحاماة الذى كنت ارتديه قائلا :

ما هذا ؟

واجبته

« هذا هلال ونجمة . ولكن لم تسألنى وانت تراهما ؟

« لاننى أعرف انهما تغيرا واصبحا نسرا .

« **بالرغم من انى** عرفت انك ، اما من ضباط المباحث أو ضباط المخابرات وليس لك حق التصدى لى ولا حق سؤالى فاننى اجيبك بان هذا الروب شاركنى حياتى فى المحاماة تقريبا فقد صنع لى منذ خمسة وثلاثين عاما وقد صنعت من بعده اكثر من روب وضاعت ولكن هذا الزميل عزيز على فقد قررت ابقاءه كماهو ولو انى لا اكتمك اننى لا اجد صلة بين تغيير العلم وبين تغيير شارة الروب . وفى الوقت نفسه يعجبنى منظر الهلال ، فهو اشرح للصدر من النسر الجارح ! واخيرا ان كنت تقول جدا لا مزاحا . . فاننى أقول لك لئن كان الخلاف على الهلال أو النسر فان الأمر أهون من أن نتناقش فيه » .

وتركته مذهولا .



كانت هناك الصحافة وقد هيىء لممثليها ومندوبيها وهم من كل بقعة من بقاع الارض مكانا يجلسون اليه وطاولة يكتبون عليها وعرفت من هؤلاء :

احمد لطفى حسونة وهو محامى وصحافى ومن الذين يتحمسون لعملهم ، ويحاولون أن يتفوقوا فيه ، ولا يكتفون باتقانه والقيام به كاملا وقد كانت له قدرة فائقة على ملاحقة ما يجرى بالجلسة واثبات الاقوال التى ينطق بها اى واحد ممن لهم حق الكلام . ثم ابداء الملاحظات الطريفة اللطيفة عن المتفرجين او المتهمين او المحامين وكثيرا ما كنا نعول على ما يثبته وقد كان ان نقص منه لفظ او اكثر او عبارة اتصل بقائلها واستوضحه الامر حتى يتم له تقديم عمل متكامل يرضى القائم على الصحيفة وللقراء والمتكلم نفسه ـ وفى كثير من الأحيان كان يغضب أولياء الأمر .

فلقد حدث فى احدى مرافعاتى فى قضية الاخوان المسلمين (**سيد قطب والهضيبى ومن معهما**) ان هيأ لطفى حسونة صفحتين كاملتين لمرافعتى مع تعليقاته ، وبعناوين ضخمة وفوجىء فى منتصف

الليل **بالفريق أول محمد فؤاد الدجـــوى** وثلة من مصاصى الدماء مدججين بالمتراليوزات يدخلون عليه مكتبه ويطلبون منه صـــورة مما سينشر من مرافعتى فقال لهم « **ولكنها فى المطبعة وقد اصلحت البروفات** » .

وسارع مصاصوا الدماء دون معونة من احـــد العاملين بدار الأخبار واحضروا الصحيفة فاخذوا ينتقصون منها ، حتى تحولت الى عمودين وبغير عناوين . واعيدت الى المطبعة حتى يذاب الرصاص وتصب الصفحة من جديد ويكملونها باخبار أخرى وقد جاءنى فى صباح اليوم التالى محزونا كظيم القلب يبدو على وجهه أسف الأطفال وقص على الخبر واخذ يندم على انه لم يحتفظ بالبروفة !

وطيبت خاطره وأخذت اعابثه ولكنه قال لى بجد :

« ليس المهم فى مرافعتك ان يسمعها هـــؤلاء المائة شخص فى المحكمة من الحاضرين فانه لن يكون لها أثر على المحكمة ولن يستطيع الحاضرون ان يحفظوا ما يسمعونه منها ولا يستطيعون ان يرددوه . ان مرافعتك محتوم ان تصل الى القراء فى مشارق الأرض ومغاربها حتى يعرف المخدوعون كيف نحكم ! لا تنسى اننى محامى مصرى » .

وانصرف عنى ولا يزال رنين كلماته يتذبذب فوق اذنى ويستقر فى اعماقى رحمة الله عليه لقد اهتصر عوده مبكرا وقلما يعوض هـــذا المتحمس لفنه .

ولقد حدثتنى السيدة الصديقة نعم الباز المحررة فى أخبار اليوم حديثا جميلاعن موقف لطفى من مرافعاتى أذكان المحررون يقصدونه مساء فيقرأ عليهم فقرات منها ، ويتناقشون فى جرأتها وصراحتها .. وما قد يصاب صاحبها من جرائها .

وهناك على الخواص مندوب الاهرام معلم من معالم الصحافة القضائية وممن ارسوا قواعد هذا الفن ، فهو حريص دائما على ان

يعطى صورة كاملة لقرائه ؛ ومن اجلها يجرى وراء المحامين ووكلاء النيابة ولو فى منازلهم ليتثبت من كل جملة وكثيرا ما يعيد الكلمات التى كتبها لكى يجيزها قائلها أو يصححها أو يعترض عليها ، ويحدث كثيرا ان القائل يختار عبارة اصوب وقد كان خفيف الظل محبوبا ممن يتعاملون فى الحقل القضائى . امينا نزيها عف اللسان والقلم واليد ، وهو الآن فى المعاش ولكنه يعاوننا جميعا عند الرجوع اليه .

ولم اعرف الباقين وقد قدموا لى انفسهم اكثر من مرة .

وقد كنت ادرك دائما خطر الصحافة وعظم قدرها فالناس فى أى بلد يفكرون بعقلهـــا ، ويرددون ما تنشر ويتأثرون بحمـــلاتها ، ويعتنقون المبادىء التى تدعو اليها . ولست أدرى ماذا يكون العالم المتمدين لو خلا من الصحافة . وقد خلت مصر قرابة عشرين عاما من الصحافة !

وكم تمنيت ان يستطيع هؤلاء ان ينقلوا ما عزمت على ان اقوله تنبيها للحاكمين وتحذيرا لهم مما هم مرتكبون فيه من أخطاء واغلاط والخطأ فى حق الفرد قابل للاصلاح اما الخطأ فى حق أمة وشعب فمن العسير اصلاحه أو تعميره وان افلح عدله واعادته فالثمن عادة يكون باهظا مرهقا .

قتل فرد واحد جريمة فيها نظـــر
وقتـــل شعب آمن جريمة لا تغتفر

ولقد كان هؤلاء الصحفيون فوق حسن ظنى بهم . قد وفقوا فى نقل احاسيسى وانفعالاتى الى الشعب المصرى والشعوب العربية والغربية بالرغم من الرقابة الشـــديدة والتعنت فى التصرف بمجرد نسخ ورفع ما هو مكتوب .

ولقد قص على احد الصحفيين من محررى احـــدى الصحف الكبرى وليس من يترددون على المحكمة .

« لقد كانت مرافعتك مثار ازعاج لنا لأشهر ففى كل ليلة يحدث احتلال عسكرى للجريدة لمدة ساعتين على الأقل لمراقبة وحذف مرافعاتك » .

ومع ذلك فان هؤلاء الصحفيين كانوا يكتفون بكلمة أو عبارة لا يكشفها الرقيب . ومع ذلك يكون لها دوى يتفجر فى عقول ونفوس وقلوب أفراد الشعب .

الى هؤلاء أبعث بتحية صادقة . فيها عرفان بجميل الصحافة الحرة النزيهة فانها بصلاحها لا تقل عن الدستور الصالح ، ولا يقل الصحفى عن النائب الحر ، وأعظم ما فى دولة من الدول ليس رئيس الجمهورية ولا رئيس الوزراء ولا رئيس المجلس النيابى وانما هو الصحفى الجرىء النزيه وهو النائب الحر فى مجلس النواب .

انا شخصيا لا اطمع فى شىء من جاه الدنيا الا الى عامود فى صحيفة وكرسى متواضع فى مجلس نيابى ! وقد جربت الاثنين مدى سنين طويلة فلم أعدل بهما أى منصب يزول صاحبه بزواله اما كلمات الصحفى النزيه والنائب الحر فلا تدفن ولا تقبر ولا يمحوها مرور الأزمان ، وانما تبقى بقاء الزمن . خالدة خلود القلم والنون وما يسطرون .

استهلال سىء :

حاول الدجوى أن يبعد نظره عنى وهو يقول :

« الدفاع له طلبات ؟

ورفعت يدى ولكنه ظل مثبتا نظره الى الجهة المخالفة لمكان جلوسى .

ثم قال :

« اذن المتهم الأول :

فوقفت وبابتسامة طبيعية وليست مصطنعة لأننى كنت أضحك لما تصورته يجرى فى خاطره وهو يلعننى ويلعن الزمان الذى عاد فجمعنا وقلت :

« أستميح الهيئة الموقرة اذنا بأن أتكلم »

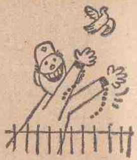
وكان طلبى غاية فى الرقة والأدب ومضمونه لا يرفض فلم يسعه الا أن يجيبنى

« تفضل »

« لى طلب متواضع وهو أن تتفضل المحكمة بأن تندب الطبيب الشرعى بالكشف على المتهمين الثلاثة الذين أتشرف بالدفاع عنهم وهم المهندس محمد سامى عبد الحميد والمهندس أحمد محمد كبودان والسيد/زكريا العبد .

ونظرت الى القفص الحديدى حيث المتهمون لأرى وقع طلبى عليهم جميعا .





كان يلفت النظر بصورة اخاذة مؤثرة ان اجد فى قفص الاتهام بعد مرور عشرين عاما متهمين كانوا قد اتهموا وحوكموا بسبب قتل مصرى لأنه صاحب الانجليز ، وكان لهم خادما ، وهمزة وصل بينهم وبين الوفد . ويومئذ استحسنت البلاد جريمتهم بل وقف المحامون وكنت منهم نتادى بحق القتل وحليته للمصرى الخائن الذى يكون للانجليز وليا .

بعض الوجوه هى‌هى: **حسين توفيق ــ سعيد توفيق ، عبدالقادر عامر ــ السيد خميس ولقد كان هناك وجوه اخرى ملفتة للنظر :**

معروف الحضرى .. انه ضابط جيش وكان فى حرب ١٩٤٨ اسطورة نسمع عنها ولم نرها ، وقد اتهم فى قضايا الاخوان ١٩٥٤ وحكم عليه ثم برىء ثم حكم عليه واعتقل . وهاهو متهم بالاشتراك مع حسين توفيق .. ومن بعد ذلك رايته متهما فى قضية الاخوان مرة ثالثة . حقا انه اسطورة !

ولقد رايته وعرفته من بعد ذلك فاذا هــو لا يذكر تاريخه ، ولا كفاحه ، ولا نضاله ولا يتحدث عن بطولاته . ولكنه انسان متواضع دمث الاخلاق . قانع بما قسم الله له من بلاء وابتلاء استمر خمسة عشر

ماما او يزيد لا يتنكر لزملائه وان كان الزمان تنكر له ، لا يقول لقد كان من حقى ان اكون قائدا عظيما أو وزيرا أو زعيما لأننى قدمت لبلادى . لا . انه بطل صامت . مؤثر على نفسه . قد ادى واجبه ولا يطلب الا من الله الجزاء الاوفى .

وهذا هو الاميرالاى (العميد) محمـــد يوسف الذى كان وكيلا للبوليس السياسى فى الثلاثينات . ولكنه كان انسانا لطيفا لم يعرف عنه انه لفق او عذب او زور . وكنا نحن شباب الوفد فى ذلك الحين ندبر المظاهرات ونحيك المؤامرات ونفعل الافاعيل ونلاقيه فى المحافظة او السجون فاذا هو مهذب مؤدب على وجهه الابتسامة اللطيفة .

ترى كيف اختاروه لهذا العمل ؟ اننى اعرف انه من بعد ذلك انتدب لحراسة الملك والملكة نازلى ورؤساء الوزارات وخاصـة فى الخارج يعنى بعد عن مواطن الشبهات .

ولقد اجتمعت به بعد ان حــكم بمعاقبته مع ايقاف التنفيذ ثم اعتقل فى معتقل مزرعة طرة . وكنا نقضى اوقاتا فى تذكر الماضى .

وهذا شاب ولكنه يطلق لحيته . وله ابتسامة منيرة تنبؤك بانه رضى النفس ، عامر القلب بالايمان ، صبور ، جلد . عرفت فى الجلسة حين سألت عنه انه **محمود السيد خليل** ــ مهندس برتبة اللواء فى الجيش وانه فصل من الخدمة فى القــوات المسلحة للشبهة فى انه « متدين » اى مســلم يؤدى الفرائض التى فرضها الله ايمــانا واحتسابا .

ولا أدرى كيف اتهم مع حسين توفيق . وان كنت بعد ان عرفته فى معتقل طره استطيع ان اقرر انه على قدر من صدق الايمان ومتانة الوطنية ورباطة الجاش ، وثبات الجنــان بحيث يصـلح ان يكون فدائيا يرتكب فى سبيل مجد بلاده اخطر الجرائم .

وان أنسى ما أنسى اول حديث له وقد اقبل على تتقدمه ابتسامة منيرة ذكرتنى بقوله تعالى **« نورهم يسعى بين أيديهم »** وقدرت انه من الذين يسعى نورهم امامهم وقال لى قبل ان نتبادل التحية

« لقد اعدت الى ثقتى ببلادى .. فاننى عندما سمعتك تصرخ فى الدجوى وفى آذان الظالمين « اين كانوا طوال هذه الاشهر ؟ »

... قول للدجوى عن تعذيب سعيد توفيق (**ياليتنى كنت محاميه** ... **سمعت منى ما لم يقله محام) قلت لنفسى ولأخوانى « لا يزال** ... **رجل »** .

... **تصادفنا** فى دقائق صداقة اسأل الله ان تدوم الى ما بعد هذه ... ولقد كنت أراه دائما ضاحكا وكان غيره يتهاوى فأقول له ... المستبشرين » .

... **الى الدجوى لقـد سألنى وهو مغيظ** وان كان يتظاهر ... الادب والرقة .

... لقد كشف طبيب السجن عليهم وفى الملف تقارير عن كل ... لسيادتك الاطلاع عليها فى اى وقت فى غير أوقات الانعقاد ... الاول » وقال الجملة الاخيرة بتهكم واستهزاء وبلهجـة ... وعنه وهى لهجة من نال من خصمه بالضربة القاضية . ... وانا امسك بأوراق فى يدى لم تكن طبعا صور التقارير ... اوهمته بذلك .

« لقد اطلعت . وفى هذه التقارير يقول طبيب السجن الحربى .. ... عبارة

... طبيب السجن الحربى » ــ يقول ان المتهم صالح للمثول امام ... واهتزت المحكمة لأول مرة لانتصار المحامى على المارد الذى ... وخافوا منه عند نشر اسـمه فى الصحف . واستمررت ... متسائلا « عم اطلب غير ذلك » .

« اننى اطلب توقيع الكشف الطبى عليهم لبيان ما عسى ان يكون ... من آثار الاعتداء والتعذيب بالرغم من مرور اكثر من تسعة ... على القبض عليهم » .

وهنا وقعت همهمة عنيفة بين المتهمين ومن النظارة ونصف... قلنا من اهل المتهمين . وبدا على وجوه الزملاء علامات التطلق وا... والتضامن، **مما أثار أعصاب الدجوى وجعله يسارع بضبط الجل...**

« المحكمة تطلب من الدفاع ان يلتزم دوره ويقدم هذا الطلب... المرافعة » وقام زميل كبير ليرد على ذلك ويؤيد طلبى ولكن الد... لم يمهله وقال له بعنف وتحقير « انت لم تطلب هذا الطلب و... سقط حقك . اقعد »

فقعد الزميل وهو رجل فاضل مهذب ولكننى استمرر... الكلام .

« قبل المرافعة يجب ان يكون التقرير امامى لاننى على ا... هذا التقرير سأقدم مرافعتى » .

وازدادت الهمهمة والتعليق فالتفت الدجوى الى الحرس وال... وقال لهم اى شخص « يطلع نفس » اقبضوا عليه فورا احنا ... محكمة ومحكمة يرأسها الفريق أول محمد فؤاد الدجوى » .

ثم التفت الى « وقال »

« المحكمة رفضت الطلب يا استاذ » .

وأجبته بكل هدوء .

« كل ما أرجوه والتمسه من هيئة المحكمة الموقرة أن يثبت ... وموافقة الزملاء لى » .

وهنا وقف بعض المحامين (الاستاذ حسين أبو زيد رحمـ... عليه والاستاذ محمد عبد الله وآخرون) وقالوا :

« نحن منضمون فى هذا الطلب »

« وقال الدجوى »

« والمحكمة رفضت الطلب »

وتابعت انا حديثى :

« التمس اثبات ذلك فى محضر الجلسة واثبات ان النيابة العمومية أمينة الدعوى العمومية ومقدمة الادعاءات لم تبد رايها .

وابتسم الاستاذ صلاح نصار ونظر الى نظرة عتاب واستاذن المحكمة فى الكلمة (للرد على ملحوظة الأستاذ ...)

وسر الدجوى وابتهج لأن النيابة « ستضرب معه » ! وقال الأستاذ نصار « أن المتهمين لم يطلبوا منا ذلك أثناء التحقيق ولم يقرروا ان احدا اعتدى عليهم بالضرب أو الايذاء فلا معنى لهذا الطلب الآن وهو لم يطلب وقت التحقيق المعاصر للقبض عليهم » .

وقلت انا :

« لقد فات النيابة ان تحقق تعليمات النائب العام وهى ان يثبت وكيل النيابة المحقق انه كشف على المتهم فلم يجد او وجد آثار اعتداء » .

« ويكفى ان النيابة العمومية كانت تحقق فى القضية فى السجن الحربى حتى يبين ان كان المتهم يستطيع ان يتنفس والجلادون يحيطون به من كل جانب » .

واستاء الدجوى بعد ان وجد ان الزمام افلت وان النيابة لم تفلح فى توجيه ضربة قاضية وقال :

« المحكمة رفضت الطلب وقررت مناقشة المتهم الاول »

والتفت الى حسين وقال :

هيه يا حسين ايه اقوالك ؟

وجلست انا وقد اثبت عليه من حيث لا يدرى انه اخفى كما اخفت النيابة جريمة التعذيب وانتهت المعركة الأولى وهو يود لو اطلق مسدسه على . فقد ترقب معارك اخرى .

واحسست ان حسين توفيق ينظر الى ثم قال :

« استاذن المحكمة فى سؤال .. لماذا لم تحقق المحكمة طلب الدفاع انما نحن المتهمين نطلب ان يكشف علينا وان يسمع دفاعنا عما وقع بنا ونطلب ان تأمر المحكمة بعدم اعادتنا للسجن الحربى فنحن لسنا عسكريين » .

وهنا زمجر الدجوى وصرخ :

« احنا بنسألك مش أنت اللى تسألنا .. انت حاولت قلب نظام الحكم وعقـدت اتفاقا جنائيا وشرعت فى قتل السـيد/رئيس الجمهورية ؟ »

وفى وسط هذه الجلبة والحركات التمثيلية قال حسين توفيق بكل هدوء « أيوه انا فكرت فى قتل الرئيس جمال عبد الناصر » . وخيم صمت عجيب على قاعة المحكمة ، حتى الدجوى خشع لهذا الاقرار ثم عاوده وعيه فقال فرحا بالاقرار ونظر الى وقال موجها الحديث :

« اظن فى القانون الاقرار يمحو الاكراه »

واجبته بسرعة :

« بالنسبة للمتهم المعترف فقط . وان كانت بعض المبادىء القضائية لا تقر هذا المبدأ » .

واستمر حسين توفيق فى كلامه الذى يتلخص فى أن عبد الناصر **اكثر الناس فضلا عليه فقد حكم عليه بالاعدام فى قضية الشيشكلى فتوسط عبد الناصر حتى عدل الحكم الى الأشغال الشاقة المؤبدة ثم عمل على نقلى من سجن المزة بعد ان اضمحلت صحتى ثم ساعد على تهريبى الى مصر حيث أمر بتعيينى فى وظيفة بشركة مصر للبترول بمرتب كبير ولكننى ان كنت قد احببته وقد طوق عنقى بهذه الأفعال**

فانى وجدت اننى احب مصر اكثر منه واكثر من اهلى ، واكثر من نفسى ، وقد اضاع مصر وافقدنا السودان . وراح يعقد ...

وهنا قاطعه الدجوى قائلا :

« هل لك كلام غير الوارد فى الاقرار المقدم منك »

« اريد ان اتكلم » .

« انت معترف يا حسين »

« انا اريد أن ابين للرأى العام »

وهنا وجد الدجوى فرصة للقضاء على التاثير الذى احدثه كلام حسين توفيق فقال صارخا :

« انت هنا لكى تخاطب المحكمة لا الراى العام . انت فى محكمة»

« امال عايزنى اقول ايه ؟

« قول ما تريدفى داخل اطار الحادث .. اتفقت مع من ؟ واعددت [illegible] الادوات ؟ . ومن احضر لك السلاح .. الخ .

« هذا كله قلته فى الأوراق »

« مالكش كلام تانى ؟

لم يرد حسين توفيق وظل هو يساله فى اركان الجريمة »

مفاجاة :

انفعلت بكلام حسين توفيق وعادت بى السنون القهقرى حتى وصلت الى محكمة جنايات مصر وحسين توفيق متهم مع بعض المتهمين اليوم فى ، قتل امين عثمان باشا ـ وكان معهم السيد/أنور السادات وكانت الترافع فى القضية عن السيد عبد العزيز خميس وهو ايضا متهم فى قضية اليوم . وطوفت بخاطرى ذكريات عزيزة وكان اعز ما فى هذه الذكريات ان حسين توفيق كان بطلا فدائيا بالطريقة التى

نفذ بها جريمة قتل أمين عثمان وكان أمين عثمان يمثل المصرى ال
يعمل على ربط مصر وبريطانيا بصداقة تكون مفهومة ومقبولة لو ا
بريطانيا قد جلت عن مصر والسودان ، اما وبريطانيا كانت لا تزا
محتلة فالمودة بيننا وبينها خيانة ، والمهادنة جريمة ، والصداقة ا
الضعيف الذليل للظالم المخوف !

ولقد وقعت هذه الجريمة فى عهد النقراشى باشا وقـــد اهـ
النقراشى باكتشاف القاتل الذى استطاع ان يهرب رغم تتبع الجمهـ
للقاتل دون ان يعرف هؤلاء الذين يجرون وراءه من يكون .

واذكر اننى برغم هذا الاهتمام من وزير الداخلية ورئيس الوزرا
واكتشاف الجماعة فاننى قبلت الدفاع عن أحد المتهمين ولم يعتـ
النقراشى على ، وفى يوم المرافعة وبالرغم من اعجابى بوطنية حسـ
توفيق وشجاعته ســـواء فى ارتكاب الحادث او بعده فى مواجهـ
الجمهور الذى تتبعه من شارع عدلى الى ميدان الاوبرا .

بالرغم من ذلك فقد دافعت عن المتهم السيد عبد العزيز خميـ
واشتركت مع زملائى وهيب بك دوس واحمد رشدى بك والدكتو
محمد زهير جرانه والمرحوم على الخشخانى والاستاذ عبد المجيـ
الشرقاوى والاستاذ امين عامر وغيرهم من فطاحل المحـــامين وقـ
اجمعوا بغير استثناء على تبرير الجريمة وحق دمه فى أن يهدر ا
حكمت عليه مصر بالاعدام يوم وصف العلاقة بين بريطانيا وبين مصـ
بأنها زواج كاثوليك !

ومما اذكره فى هذا الصدد ان المحكمة قضت بمعاقبة حسـ
توفيق بالسجن ٩ سنوات .

وهو حكم لا يتناسب حتى مع استعمال الرأفة فالمفروض ان
النزول بالعقوبة الى ما هو ادنى يكون من الاعدام الى الاشغال الشاقة
المؤبدة ومن الاشغال الشاقة المؤبدة الى الاشغال المؤقتة .

وقد حدث امامى ان تحدث فى يوم صدور الحكم السيد/حسن يوسف وكيل الديوان الملكى مع وزير العدل المرحوم احمد مرسى بدر يقول له « ان جلالة الملك يرجو ان تذكر عبد اللطيف بك محمود (وهو رئيس محكمة الجنايات التى اصدرت الحكم) وذلك بتعيينه فى احدى الوظيفتين الخاليتين (وكيل الوزارة والنائب العمومى) وقد ثار رحمة الله عليه واغلق التليفون تقريبا فى وجه حسن بك يوسف واصطحبنى من بولكلى بالاسكندرية الى النقراشى باشا فى القاهرة وقد تدخل دولته تدخلا عنيفا حتى اقسم الملك « بشرفه » انه لم يطلب من حسن بك يوسف أن يتدخل — وقد نشرت هـــذه القصة فى كتابى « صور من المحكمة » وقد حبس هذا الكتاب عن النشر عند صدوره سنة ١٩٦٦ .

واذكر ايضا أن السيد / انور السادات عندما تولى رئاســـة الجمهورية احتفل بهذه المناسبة التى حوكم فيها وقضى ببـــراءته فانعم على هيئة المحكمة أحياءا وامواتا وعلى السيد وكيـــل النيابة الأستاذ محمد انور حبيب ثم عينه بعد ذلك وزيرا للمظالم . وكذلك على سكرتير الجلسة وعلى السعاة وبقى المحامون !

واتم الدجوى مناقشة حسين توفيق بسرعة وبذكاء لانه ادرك أن حسين توفيق سيتكلم بلا مبالاة وبصراحة تمزق جلال العتاة .

والتفت الى المتهم الثانى للمناقشة ولكنـــه فوجىء بى واقفا وبيدى ورقة مكتوبة والتفت الى متسائلا فقلت له :

« لى طلب آخر اثبته فى ورقة اتشرف بتقديمها للمحكمـــة ثم ابدى هذا الطلب شفويا وهو اننى التمس من المحكمـــة الموقرة ان تقرر انتقالها فورا مع المتهمين وهيئة الدفاع الى السجن الحربى .

وقاطعنى الدجوى مندهشا :

وشمس بدران وحمزة البسيونى ورياض ابراهيم .

ولم يمهله الدجوى وقال له :

« قبل المحكمة والا بعد المحكمة » .

« قبل المحكمة » .

« يبقى مالناش دعوه » .

ووقفت انا وحسين ابو زيد معا وقلت :

« أمال مين صاحب الشأن ؟ انك تسمع بلاغ بجناية لذلك نرجو التحقيق فيه » .

وقال حسين ابو زيد :

وانا منضم لزميلى ...

وسكت باقى المحامين .

وقررت المحكمة رفع الجلسة واستمررت انا فى الكلام وهيئة المحكمة تقوم وتلبس « الكابات » القبعات العسكرية ويجمعون الاوراق ويسيرون الى غرفة المداولة .

ولقد قلت كلاما كثيرا وانا منفعل .

« لمن الشكوى اذن ؟ تعذيب .. يصرخ المتهم باتهام اشخاص معينين بالتعذيب ومع ذلك المحكمة تقول لا شأن لنا » .

ولعلنى قلت كلاما اخطر ! فقد استحالت غرفة الجلسة الى صراخ وصياح واستنكار ...

* * *

وهل نحن مفتشين ؟

« لم اقل انكم مفتشون وان كان من حقكم ، ولكننى اقول ان الدفاع سيتحدث عن فلقات يعلق فيها المتهمون وكلاب ضاريه تمزق اجساد المتهمين وكرابيج سودانى يضرب بها المتهمون وتترك فيهم آثارا باقية ونريد أن تستوثق المحكمة من ذلك » .

وصفق بعض المتهمين واهلهم وهنا صاح الدجوى وثار وزمجر وضرب المنصة بقبضته صارخا « الكلب اللى صفق يظهر وأنا حاحاكمه فورا » نحن هنا فى محكمة مش فى اجتماع سياسى . مش فى شارع !

ثم هدأ ونظر الى وقال :

« قلنا يا استاذ ان تقول ما تشاء فى مرافعتك وستنظر المحكمة بعد مرافعتك ان كان هناك ما يستدعى التحقيق » .

وقلت له :

« على أى حال ان على ان اقدم طلبات الدفاع ، وللمحكمة ان ترفض ، ولكننى لا أزال أؤكد للمحكمة انها لو تفضلت بقبول طلبى وتنفيذه لأسدت الى العدالة يدا لا تنسى » .

وقال هو « المتهم الثانى » .

وكان الثانى والثالث والرابع من اعضاء الجماعة التى حوكمت فى قتل أمين عثمان وكانوا يحاولون أن يتجلدوا ويبدون الشجاعة ورباطة الجاش ولكن كان يبدو عليهم مظهر التعذيب . وضعف الجسد وتهاوى النفسية . كما يبين ايضا الخوف فى ترددهم فى القول .

ولما كان سعيد توفيق يسرد كلامه فى مناقشة المحكمة له قال :

« اننى عذبت وكل زملائى عذبوا والذى عذبنا صلاح نصر

الفهرس

صفحة

قرار العفو عن القضايا السياسية ٣
الاهـــداء ٥
المقـــدمة ٧
تقـــديم ٢١
كيف نشأت محكمة الدجوى ٣٣
القضـــاء فى مصر ٣٥
العدل فى الاسلام ٣٩
اول قاض فى مصر ٤٢
شجاعة القضـــاء ٤٥
القضاء فى مصر فى القرن العشرين ٥١
قضية اللواء ١٩٠٨ ...... ٥٣
قضـــيتا وطنيتى ٥٧
قضية قتل بطرس غالى باشا ٥٩
سر تقدم القضاء المصرى ٦٠
محـــاكمة العمـــد ٦٣
قضية ماهر والنقراشى ٦٤
تالق القضـــاء ونزاهته ٦٦

صفحة

أول لقاء مع الدجوى ٦٩
يوم المحاكمة ٧٥
نـدم ٧٩
تحية الحرية ٨٣
ذكريات محـزنة ٨٧
العلانية ٨٩
أعطنا دروسا فى القـانون ٩٥
صـافى يا لبن ! ٩٩
تسـمح لى المحكمـة بكلمة قصيرة ١٠٢
وظل الدجوى يصرخ ويهذى ١٠٤
نهاية جمال سالم ١١٠
تعـذيب ١١٢
المنجة والدوم ١١٧
عودة الى المحاكمة ١٢١
المبلغون ١٣٣
حادث السردار ١٣٦
قضية ماهر والنقراشى ١٥٠
الشروع فى قتل اسماعيل صدقى ١٥١
قضية القنابل الكبرى ١٥٣
قضية قنبلة طنطا ١٥٥

الموضوع صفحة

قضية المؤامرة الكبرى سنة ١٩٤١ ١٥٧
المبلغون بعد الثورة ١٥٩
حسن الفقاعى ١٦٥
الحملة الفرنسية ١٦٦
المرافعـة ١٦٩
المخابرات ١٧٥
الفصل الثانى ١٨٩
الصحـافة ٢٠٣
المتهمـون ٢٠٩
مفاجأة فى المحكمة ٢١٥
عنـدما صفق بعض المتهمين ٢١٨
كلمة دوت فى العالم كله ٢٢١
القضايا السياسية ٢٢٧
انحراف المحامين ٢٣٠
المرافعة مرة ثانية ٢٣٣
الاجابة على السـؤال ٢٤١
ثورة الدجـوى ٢٤٢
هل عائلة المشـير لصوص . . ؟ ٢٤٥
يوم لا ينسى ٢٥٣
تحيـا الحـرية ٢٥٩
قضايا الاخوان المسلمين ٢٦٥

صفحة	الموضوع
٢٦٩	[illegible] المتهمين
٢٧٤	[illegible] المتهمين
٢٧٥	آباء وامهات
٢٧٧	المتهمون
٢٨٣	من هو سيد قطب
٢٨٧	الشيخ عبد الفتاح اسماعيل
٢٩٣	اسماعيل الفيومى
٢٩٩	قصة تعذيب
٣٠٣	مؤامرة المثقفين
٣٠٧	عودة الى القضية
٣١٠	استجواب .. أم تعذيب ؟
٣١٣	المال فى بيت الهضيبى
٣١٧	محمد سعيد هواش
٣٢٣	المرافعات
٣٢٩	حادث غريب
٣٣٣	عودة الى المرافعة
٣٤٣	المرافعة فى قضية الاخوان
٣٥٧	من هو الدجوى
٣٧١	خاتمه تهمة
٣٨١	كلمة عبد الفتاح حسن المحامى
٣٨٧	كلمة محمد شمس الدين الشناوى
٤٠٨	سيد قطب والدجوى
٤١٠	الجواهر فى التراب
٤٢٣	هذا هو قضاء مصر
٤٢٤	قضاة مصر يناشدون السادات